الرسالة

مجلة اسبوعية للأدب والعلوم والفنون

العدد ٨٩ – ١٨ مارس سنة ١٩٣٥ – السنة الثالثة

3 me Année, No. 89.

Lundi-18-3-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع شركة الفجر

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٨٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٥٣ — ١٨ مارس سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــــدد

بلاد الشكوى !

للأستاذ عبد العزيز البشرى

لقد تحدثك نفسُك يوماً بأن تتعرّف الصفةَ التى تميّز مصرَ من بين بلاد العالم ، والتى إذا أُطلقت انطلقت من فورها إليها دون أقطار الأرض جميعاً . وإن مما لا يعتريه الشك أنه ما من أمةٍ إلاّ ولها خاصيّة تستقلّ بها عن كل ما عداها من الأمم ، لا يَشرَكها فيها غيرها ولا يتّصف بها سواها ، وهذه الخاصية لقد تتصل بالأخلاق والعادات والتقاليد ، ولقد تتصل بالتاريخ ، ولقد تتعلّق بالتصرف فى سبب من أسباب الحياة ، أو بالاستئثار بالتبريز فى فن من الفنون ، أو بغير ذلك من وجوه الفروق المختلفة بين أصناف الناس ، فاذا قُدر المستحيل ، أو قُدر النادرُ الذى يجاور المستحيل ، ولم تتفرّد إحدى الأمم بما يشخّصها من تلك الأسباب الكثيرة ، فلا أقلّ من أن تختص فى طبيعة أرضها وسمائها ، وجوها ومناخها ، بما يحقّق لها هذا المعنى حتى يتّسق لها هذا الوجود الخاصّ فلا تختلط بغيرها من العالمين . وتلك من سنن الكون التى لا يَشِذ عليها خَلق من الكائنات أبداً !

ونعود فنفرض أنه لقد تحدثك نفسُك بتعرّف هذه الخاصيّة

التى تتفرّد بها مصر دون سائر أمم الأرض . ولعل أول ما ينحطّ عليه ظنّك أنها بلادٌ زراعيّة طوعاً لسخاء أرضها بألوان الغلاّت ، ومهارة سواد سكانها فى فنون الزراعة وفلح الأرض وحسن تمهدها ، واستنباتها على خير الوجوه . إلى أن أهلها ، فى الجملة ، لا يتكئون على سبب من أسباب العيش التى يتكئ عليها كثير غيرهم ، كالتجارة ، والصناعة ، وصيد البحر أو البرّ . فاذا هى عالجت شيئاً من هذا فانما تعالجه بالقدر الذى ينتظمها فى مؤخرات الصفوف ! إذا ميّزتها بأنها أمة زراعية ، فالأمم الزراعية فى العالم كثير !

ثم إنها ليس لها حظ مذكور من علم ، ولا من فن ، ولا من قوة بدنية ، ولا من امتياز فى كفاية حربية ، ولعل هذا يرجع إلى ظروفها التى لا خيار لها فيها لا إلى طبيعة أبنائها ، فالمصرىّ معروف بالشجاعة فى الحرب ، وطول الصبر فيها ، وشدة الجلَد عليها من قديم الزمان . ومهما يكن من شىء فليس لمصر الآن حظ مذكور فى شىء من تلك الأشياء ، فضلاً عن أن يكون لها به تفرّد واستئثار ، بحيث إذا أُطلقت صفته عَرف الناس أن مصر هى المقصود به دون سائر البلاد

ولقد تطلب هذه المزية فى تاريخ مصر القديم ، وحضارتها التالدة ، وما سلف لها من مجد ما برح يُثقل مناكب التاريخ . ألا فاعلم أن مصر لا تستأثر بهذا ولا تستقل به ، فهذه الصين لها حضارة لعلها أقدم من حضارة مصر ، وهذه أمة اليونان وما أدراك ما حضارة اليونان ، وعلومها ، وفلسفتها ، وفنونها ، وعظمتها الحربية . ومجدها الذى طاول السماء . فانظر إلى ما صارت إليه الآن ، وكيف تغيّر لها وجه الزمان !

وهذه أمم لقد كانت لها حضارات فخمة ، وكانت لها قوة لا تعدلها قوة ، وسَطوة فى أمم الأرض دونها كل سَطوة ، فدارت عليها رحى الزمان حتى طحنتها طحناً ، وأحالتها فى الخَلق عِهناً ، ثم ذرّتها فى الهواء ، ولم يُصبح لها من الآثار ، إلاّ ما قيدت الصحف من مأثور الأخبار . وأين منا الآن فينيقيا وشور وبابل وغيرها من دول لم يدرك شأنها شان ، ولم يُدانِ سلطانها فى الأرض سلطان ! ومهما يكن من شىء فالوصف بعظمة الماضى ، وجلالة التاريخ ، وفخامة المجد التليد ، ليس مما يجدى المصريين فى هذا الباب ولا يُفيد !

* * *

أرجوك ياسيدى الطُّلعة ألاّ تَجهد بطول البحث والتحرى ، وشدة الفحص والتقرى ، فانك ، فى الغاية ، لن تخرُج بشىء من هذه المظان التى ترجو أن توافقك فيها طِلبتك ، ولن تُصيب لمصر فى هذه الأيام من الصفات ما يقع عليها على جهة التعيين ، ولو فتشت نجوم السماء ، ونقضت كل ما على ظهر الأرض من الحصباء !

على أننى متبرع ، لوجه الفضول وشهوة التطلع ، بأن أهديك إلى الخلة التى تختص بها مصرُ فى هذا الزمان وتستأثر ، بحيث لايشاركها فيها مشارك ، ولا ينازعها عليها منازع . وبحيث لو حُشرت الخلائق كلها فى صعيد واحد ؛ وبُعث معهم كل من لحقهم الثبور ، وجميع من غيبتهم القبور ، ومن نهشتهم وحوش البر ، وسباع الطير ، والتقمتهم الحيتان فى جوف البحر ، من مهلك عاد وثمود ؛ ومقتل أصحاب الأخدود ، وصحْت فيهم أىُّ الأمم الآن صِفتها كيت ؟ لأجابوك فى نفَس واحد : هى مصر !

وهذه الخلة التى تمتاز بها مصر اليوم وتنفرد دون سائر أمم الأرض جميعاً هى **الشكوى** ! نعم هى **الشكوى** ! . وإننى أتحدى من شاء ، وأخاطر من شاء على ما شاء ، إذا زعم أن هناك أمة أشكى من مصر ، أو أن هناك خلقاً من خلق الله يشكون بنسبة $\frac{1}{800000}$ مما يشكو المصريون !

كل هيأة فى مصر تشكو ، وكل طائفة فيها تشكو ، وكل جماعة تشكو ، وكل فرد يشكو . ما تنقطع لأحد من هؤلاء شكوى ما عاقب الليلُ النهار ، حتى لو قُيِّض لعالم مخترع مثل السنيور مركونى أن يُحيل جميع المصريين إلى معنى من المعانى ، لاستحالوا إلى شكوى يطن فى الآفاق طنينها ، ويئن فى الأجواء أنينها ، حتى لو كانت ملائكة السماء خلقاً مثلنا ، يجرى عليهم ما يجرى علينا من الضجر والقلق ، ويُدركهم ما يدركنا من السهر والأرق ، لقضوا من شدة هُتاف شكوانا آلاف الأعوام لا تذوق جفونهم الغُمضَ ولا يزور عيونهم المنام ! . ولكنهم ، لحسن حظهم ، أيقاظ على الدهر ، ما يهفو بهم التعب إلى ضجعة ، ولا يضطرهم النَّصب إلى هجعة !

لا ترى أحداً فى مصر إلاّ يشكو ، ولا تنقطع له شكوى على الزمان : هؤلاء الموظفون ! أرأيتهم قد انقطعوا يوماً واحداً عن شكواهم ، وبث مظلمتهم وعظيم بلواهم ؟ . الدرجات الدرجات !. العلاوات العلاوات !. الترقيات الترقيات ! . ارفقى يا حكومة ما حل بنا من حيف ، فقد حبست عنا علاوات الشتاء ! وأبطأت علينا فى علاوات الصيف !

وهؤلاء الحجاب والسعاة ، لا تراهم يدعون كل يوم إلا بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، لأنهم أكثر خدام الحكومة تعباً ، وأحقرهم مرتباً ، وهيهات أن تفى بضعة الجنيهات ، بما يزحمهم من وجوه المطالب فى وجوه الحاجات ، وقد أثقلتهم النفقة على الأهل والولد ، بعد ما عم الغلاء هذا البلد ، ولو كانت الحكومة على شيء من الانصاف ، لزادت مرتباتهم أضعافاً على أضعاف !

وهؤلاء رجال البوليس لايفتأون يشكون الظلم اللاحق ، والجور الحائق ، فأعمالهم ثقيلة ، ومهماتهم جليلة ، ومع هذا فمرتباتهم قليلة ، وعلاواتهم ضئيلة ، ودرجاتهم هزيلة . والترقية الى الدرجات مما يحتاج الى طيّ الأحقاب ، ودون ذلك مشيب الرجل بل مشيب الغراب ! وهذا والله ما لا ينبغى أن يعامَل به حفظة النظام ، ومن يضحون براحتهم وأرواحهم فى إقرار الأمن والسلام !

أما معاونو الادارة ، فلا تسكن لهم شكوى . تارة بتقديم (العرائض) وعلى ألسنة الصحف تارة !

ورجال القضاء أهليّه وشرعيّه ، لا يفتُرون عن المطالبة بتعديل (كادر) الدرجات ، وتحسين نظام العلاوات ، حتى يتسق ما يتقاضون من الرواتب ، لما يتقلدون من رفيع المناصب ، ولا شك أن من أشد الاجحاف ، أن تسوم الظلمَ من تقتضيه القيام على العدل والانصاف

وهؤلاء حملة الشهادات ممن لم تستخدمهم الحكومة فى مناصبها ، هيهات أن تبطُل لهم شكاية ، أو تفتُر لهم دعاية ؛ فاذا استُخدموا استأنفوا الشكوى من قلة الراتب ، وسألوا الحكومة أن تمنحهم من الدرجات ، ما يكافىء ما أحرزوا من عليا الشهادات !

أما المعلمون فى التعليم الأولى بجميع ضروبه وأشكاله وألوانه ، فهؤلاء لا ينقطع لشكاياتهم مَدَد ، ولا يحصيها عدد ، فهم كل يوم يُمطرون المعارف (بالعرائض) امطاراً ، ويُرسلون منها على الصحف وابلاً مدراراً . حتى أضحى المرء لا يشق صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية ، أو شهرية ، إلا رأى الشكايات تنفذ اليها من كل أقطارها ، وتجرى فى جميع أنهازها ، وحتى أصبح خلوّ صحيفة واحدة من ذلك مما يثير الرِّيب ، ويدعو الى أعجب العجب !

هذا بعض ما يكون من الموظفين ، أما التلاميذ وأولياء التلاميذ ، ففى كل يوم شكوى من ضيق المدارس بالوافدين ، ومن المصروفات المدرسية ، ومن رسوم الامتحانات العامة ، ومن صعوبة أسئلة الامتحان ، ومن الدرجات التى تشترط للدخول فى امتحانات الملاحق ، وهكذا مما لا يبرح يطنّ فى الآذان ، ما تعاقب الملَوان ، وطويت صحائف الزمان !

***

والأهلون الأهلون ! لا ترى بلداً فى بلاد القطر كله إلا يشكو بعضُ أهله ، على الأقل ، من عمدته ، ويُسرف فى اتهامه بالظلم والجور ، وايثاره الهوى فى معاملة الناس ، وغفلته عن صيانة الأمن ، ومصانعته لسرّاق الليل . وهكذا . فاذا لم تنفذ التهم اليه من أىّ باب ، طلبوا ازالته لأنه (فقد النصاب) ! وحسبك أن تزور يوماً وزارة الداخلية لترى من هذه العجب العجاب !

وهذا النيل إذا أقبل ، فهل تسمع من أى بلد إلا مُوجِع الشكوى . من احتباس الماء عن الأرض حتى عم الشرق ، أو أن الماء طغى على الزرع حتى غمر الساق والورق !

وهؤلاء الأزواج يشكون الزوجات ، وهؤلياء الزوجات لا ينين عن شكاية الأزواج ، وهؤلاء آباء يقاضون الأبناء ، وأبناء يستَعدُون القضاء على الآباء ! . وحسبك أن تطوف يوماً ببعض محاكم الشرع لتستيقن أن الحياة العائلية فى هذه البلاد قد تصدّعت أركانها ، وتداعى بنيانها ، وأنها عما قليل ستحُور أطلالاً بالية ، وأنقاضا من بَنِيّات الأمم الخالية ! .

ولا تنس الأحزاب واتهامها الحكومات بسوء الحكم وخُلف الوعود ، وشكوى الحكومات مما يقابَل به ما تبذل من الجهود ، من النكران وشدة الجحود ! .

(البقية فى أسفل الصفحة التالية)

عروس تزف الى قبرها

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

— ١ —

كان عمرُها طاقةَ أزهارٍ تُسمى أياماً

كان عمرُها طاقةَ أزهارٍ يَنتسِقُ فيه اليومُ بعد اليوم كما تَنبتُ الورقةُ الناعمةُ فى الزهرة الى ورقةٍ ناعمةٍ مثلها

أيامُ الصِّبى المَرِحةُ حتى فى أحزانِها وهمومِها ؛ إذ كان مجيئُها من الزمن الذى يُخصّ بشباب القلبِ ، تبدو الأشياءُ فى مَجارى أحكامِها كالمسحورةِ ؛ فان كانت مُفرِحةً جاءت حاملةً فرَحيْن ، وإن كانت محزنةً جاءت بنصف الحزن

تلك الأيامُ التى تعملُ فيها الطبيعةُ لشباب الجسم بقُوَى مختلفة ، منها الشمسُ والهــواءُ والحركة ، ومنها الفرحُ والنسيانُ والأحلام !

***

وشبّتْ العذراءُ وأُفرِغتْ فى قالب الأنوثةِ الشمسى القمرى ، واكتسى وجهُها ديباجةً من الزَّهر الغضّ ، وأودعتها الطبيعةُ سِرَّها الإنسانىَّ الذى يجعلُ العذراءَ فنَّ جمالٍ لأنها فنُّ حياة ، وجعلتها تِمثالا للظَّرف ؛ وما أعجبَ سِحرَ الطبيعةِ عند ما تجمِّلُ العذراءَ بظرفٍ كظرف الأطفال الذين ستلدُهم من بعد ! وأسبغَتْ عليها معانىَ الرقة والحنانِ وجمالِ النفس ؛ وما أكرم يد الطبيعة عند ما تُمْهِرُ العذراءَ من هذه الصفات مَهرَها الانسانى !

***

وخُطبت العذراءُ لزوجها ، وعُقد له عليها فى اليوم الثالث من شهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر

وماتت عذراءَ بعد ثلاث سنين ، وأُنزِلَتْ الى قبرها فى اليوم الثالث من شهر مارس فى الساعة الخامسة بعد الظهر !

وكانت السنواتُ الثلاثُ عُمْرَ قلبٍ يُقطّعُه المرض ، ينتظرون به العُرْس ، وينتظر بنفسه الرَّمس !

يا عجائبَ القدَر ! أذاك لحنٌ موسيقىٌّ لأنينٍ استمر ثلاثَ سنوات ، فجاء آخرُه موزوناً بأوّله فى ضبطٍ ودقّة ؟

أ كانت تلك العذراءُ تحملُ سرّاً عظيما سيُغيّر الدنيا ، فردّت الدنيا عليها يوم التهنئةِ والابتسامِ والزينة — وهو يوم الوَلْولَة والدموع والكفن ؟

— ٢ —

واهاً لك أيها الزمن ! مَن الذى يفهمك وأنت مُدّةُ أقدار ؟ واليومُ الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مختلفةٌ بعدد أهل الدنيا جميعاً ، وبهذا يعود لكل مخلوقٍ سِرٌّ يومِه ، كما أن لكل مخلوق سرّ روحِه ، وليس اليه لاهذا ولا هذا

وفى اليوم الزمنىّ الواحد أربعمائة مليون يوم إنسانىّ على الأرض ! ومع ذلك يُحصيه عقلُ الانسان أربعاً وعشرين ساعة ؛ يا للغباوة . . . . !

وكلٌّ إنسان لايتعلّق من الحياة إلا بالشعاع الذى يُضىءُ المكانَ المظلمَ فى قلبه . والشمسُ بما طلعَت عليه لا تستطيع أن تنير القلبَ الذى لايضيئُه إلا وجهٌ محبوب

وفى الحياة أشياءُ مكذوبةٌ تكبّر الدنيا وتُصغّر النفس ، وفى الحياة أشياء حقيقية تَعظُم بالنفس وتَصغُر بالدنيا ؛ وذَهبُ الأرض كلّه فقرٌ مُدْقِعٌ حين تكون المعاملة مع القلب

أيتها الدنيا ؛ هذا تحقيرك الالٓهىُّ إذا أكبرك الانسان !

***

ويا عَجبا لأهل السوء المغترّين بحياة لابدّ أن تنتهى ! فماذا يرتقبون إلا أن تنتهى ؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضة ؛ وهل أعجبُ وأغمضُ من أن يكون انتهاءُ الانسان الى آخرها هوأوّلُ فكرهِ فى حقيقتها ؟

فعند ما تَحينُ الدقائقُ الممدودةُ التى لا ترقمُها الساعةُ ولكن يرقمها صدرُ المُحتَضَر . . . عند ما يكون مُلكُ

ولو قد ذهبتُ أسرد لك جملةَ الشاكين والشاكيات ، والباكين على سوء حالهم والباكيات ، لما اتسعت صحائف (الرسالة) ، لاستيعاب هذه المقالة

ومهما يكن من أمر ، فلعلك قد اقتنعت الآن بأن أصدق وصف لمصر فى هذا العصر ، وأن أدق تعريف ينطبق عليها دون سائر الأمم هى أنها بلاد الشكوى !

ولعلنا نوفّق قريبا الى إتمام المقال ، بالبحث عن علة هذه الحال ما ؟

عبد العزيز البشرى

الملوكِ جميعاً كالتراب لا يشترى شيئاً البتّة . . . .

. . . . ماذا يكون أيها المجرم بعد ما تقترفُ الجناية ، ويقومُ عليك الدليل ، وترى حولك الجند والقضاة ، وأمامك الشريعة والعدل ؟

***

أعمالنا في الحياة هي وحدها الحياة ، لا أعمارُنا ولا حظوظنا . ولا قيمة المال ، أو الجاه ، أو العافية ، أو هي معاً — إذا سُلبَ صاحبها الأمنَ والقرار ! والآمنُ في الدنيا من لم تكن وراءه جريمةٌ لا تزال تجرى وراءه . والسعيدُ في الآخرة مَن لم تكن له جريمة تُطاردُه وهو في السموات

كيف يمكن أن تخدعَ الآلةُ صاحبها وفيها (العدّاد) ، ما تتحرّكُ من حركة إلا أشعرَته فعدّها ؟ وكيف يمكن أن يكذبَ الانسان ربّه وفيه القلب ؛ ما يعمل من عملٍ إلا أشعره فعدّه ؟

— ٣ —

ورأيتُ العروسَ قبل موتها بأيام

أفرأيت أنتَ الغنيَ عندما يُدبِرُ عن إنسان ليتركَ له الحسرةَ والذكرى الأليمة ! أرأيتَ الحقائق الجميلة تذهب عن أهلها فلا تتركُ لهم إلا الأحلامَ بها ؟ ما أتعبَ الانسانَ حين تتحوّل الحياةُ عن جسمه الى الاقامة في فكره !

وما هي الهمومُ والأمراض ؟ هي القبر يستبطىء صاحبه أحياناً فينفض في بعض أيامه شيئاً من ترابه . . . !

رأيتُ العَروس قبلَ موتها بأيام ، فيالله من أسرار الموت ورهبتها ! فرَغَ جسمُها كما فرغتْ عندها الأشياءُ من معانيها ! وتخلّى هذا الجسم عن مكانه للرّوح ، تظهرُ لأهلها وتقفُ بينهم وقفةَ الوَداع !

وتحوّل الزمنُ إلى فكر المريضة ؛ فلم تعُد تعيشُ في نهارٍ وليل ، بل في فكرٍ مضيءٍ أو فكرٍ مظلم !

يا إلهي ، ما هذا الجسمُ المتهدّمُ المقبلُ على الآخرة ؟ أهو تمثال بَطَلَ تعبيرُه ، أم تمثالٌ بدأ تعبيرُه ؟

لقد وثقتْ أنه الموت ، فكان فكرها الإلهيّ هو الذى يتكلم ؛ وكان وجهُها كوجه العابد ؛ عليه طَيفُ الصلاةِ ونورُها . والروحُ الانسانية متى عبّرت لا تعبر إلا بالوجه

ولها ابتسامةٌ غريبةُ الجمال ؛ إذ هي ابتسامةُ آلامٍ أيقنتْ أنها مُوشِكةٌ أن تنتهي ! ابتسامةُ روحٍ لها مثلُ فرحِ السجين قد رأى سجّانه واقفاً في يده الساعة ، يرقُبُ الدقيقةَ والثانية ليقول له : « إنطلِق ! »

***

ودخلتُ أعودُها فرأتْ كأنني آتٍ من الدنيا . . . ! وتنسّمتْ مني هواءَ الحياة ، كأنني حديقةٌ لا شخص !

ومَن غيرُ المريض المُدنف ، يعرف أن الدنيا كلّها ليس لها معنىً أبداً إلا العافيــة ؟ من غيرُ المريضِ المشفِي على الموت ، يعيش بقلوب الناس الذين حوله لا بقلبه ؟

تلك حالةٌ لا تنفع فيها الشمسُ ولا الهواءُ ولا الطبيعةُ الجميلة ، ويقوم مقامَ جميعها للمريض أهلُه وأحبّاؤه !

وكان ذوُوها من رهبة القدر الداني كأنهم أسرى حربٍ أجلسوا تحتَ جدارٍ يريد أن ينقض ! وكانت قلوبهم من فزعها تنبضُ نبضاً مثلَ ضربات المعاول

وباقتراب الحبيب المحتَضَر من المجهول ، يُصبح من يحبّه في مجهولٍ آخر فتختلط عليه الحياةُ بالموت ، ويعود في مثل حيرةِ المجنون حين يُمسكُ بيده الظلَّ المتحرّكَ ليمنعه أن يذهب ! وتعروه في ساعة واحدة كآبةُ عمرٍ كامل ، تُهيئ له جلالَ الحس الذى يشهد به جلالَ الموت !

***

وحانت ساعةٌ لا يُفهم ، ساعةُ كلِّ شيء ، وهي ساعةُ اللاشيء في العقل الانساني ! فالتفتتْ العروسُ لأبيها تقول : « لا تحزنْ يا أبي . . . » ولأمها تقول : « لا تحزني يا أمي . . . ! »

وتبسمتْ للدموع كأنما تحاول أن تكلمها هي أيضاً ؛ تقول لها : « لا تبكي . . . ! » وأشفقتْ على أحيائها وهي تموت ، فاستجمعتْ روحَها ليبقى وجهها حياً من أجلهم بضع دقائق ! وقالت : « سأغادركم مبتسمة فعيشوا مبتسمين ، سأتركُ تذكارى بينكم تذكار عروس ! . . . »

ثم ذكرت الله وذكّرتهم به ، وقالت : « أشهد أن لا إله إلا الله » وكررتها عشرا ! وتملأت روحها بالكلمة التي فيها

نور السموات والأرض ، ونطقت من حقيقةٍ قلبها بالاسم الأعظم الذى يجعل النفس منيرةً تتلألأ حتى وهى فى أحزانها

ثم استقبلت خالق الرحمةِ فى الآباء والأمهات ! وفى مثل إشارة وداع من مسافر انبعث به القطار ، ألقت اليهم تحيةً من ابتسامتها ، وأسلمت الروح !

— ٤ —

يا لعجائب القدر ! مشينا فى جنازة العروس التى تُزفُّ إلى قبرها طاهرةً كالطفلة ولم يبارِكْ لها أحد ! فما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرتُ على حائطٍ فى الطريق ، إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذى يصيح للأعين ؛ إعلاناً قديماً عن رواية هذا هو اسمها : « مبروك . . . ! »

واخترقنا المدينةَ وأنا أنظر وأتقصى ، فلم أرَ هذا الاعلان مرةً أخرى ! واخترقنا المدينة كلها ، فلما انقطع العمرانُ وأشرفنا على المقبرة ، إذا آخر حائطٍ عليه الاعلان : « مبروك . . . ! »

طنطا مصطفى صادق الرافعى

صفحات من الدبلوماسية الاسلامية

السفارات الخلافيـــة والسلطانية

وعلائق الاسلام والنصرانية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمـــة

لما تولى المعتصم الخلافة عقب وفاة أخيه المأمون ، حاول قيصر قسطنطينية الأمبراطور تيوفيلوس (توفيل) أن يعقد الهدنة والصلح مع المسلمين ، فأوفد الى المعتصم سفارة على رأسها يوحنا النحوى . وكان يوحنا من أعظم علماء عصره ، يجيد العربية ، فقصد إلى بغداد يحمل أنفس الهدايا والتحف ، وأنزل بأحد قصور الخلافة ؛ وأدهش البلاط برائع بذخه ، وما نثر حوله من مظاهر الفخامة والترف . وتعرض لنا الرواية البيزنطية قصصاً عجيبة عن بذخ يوحنا وفخامته . وكان لهذه السفارة غاية مزدوجة : الأولى أن تعقد بين الخليفة والقيصر معاهدة سلام دائم ؛ والثانية أن يعمل السفير على إقناع منويل ، وهو قائد بيزنطى يلوذ ببلاط الخليفة ، بالعودة إلى قسطنطينية . فأفلح السفير فى تحقيق الثانية ، ولم يفلح فى تحقيق الأولى ؛ ولكن المعتصم رأى أن يجامل القيصر بالأفراج عن مائة من الأسرى النصارى . وعلى أثر هذا الفشل فى عقد الصلح ، زحف الأمبراطور على اراضى المسلمين ، وغزا زبطرة من معاقل الحدود الأسلامية ، وكان الروم يزعمون أنها مسقط رأس المعتصم ؛ فاستولى عليها واستباحها وأنزل بسكانها المسلمين رائع الاثم والسفك ؛ وتروى التواريخ البيزنطية أن المعتصم لما علم بزحف الروم على زبطرة ، أرسل إلى الأمبراطور سفارة يرجوه فيها أن يفر المدينة العيث والسفك فأبى تيوفيلوس وارتكب فيها ما ارتكب ، وهدمها حتى صارت قاعاً صفصفاً

عندئذ قرر المعتصم الحرب وأقسم بالأنتقام وسار ألى أراضى

الروم فى جيش ضخم ، وقصد إلى عمورية (أموريوم) أجل وأمنع مدن الروم فى آسيا الصغرى ؛ فهاجمها مراراً ، ولكن الروم دافعوا عنها دفاعاً شديداً ، فضرب حولها الحصار ، واعتزم ألا يغادرها حتى تسقط فى يده . عندئذ اضطر الأمبراطور أن يسعى إلى طلب الصلح ، وأرسل بدوره سفارة إلى المعتصم ، على يد أسقف عمورية وكبرائها ، فأعلن المعتصم أنه لن يعقد الصلح ، ولن يمنح شروطاً للتسليم ، وأن الأنتقام هو غايته واعتقل السفراء ، فاستمر الحصار خمسة وخمسين يوماً ، ثم سقطت المدينة فى يد المسلمين ، وأبدى المعتصم ، كما أبدى تيوفيلوس من قبل منتهى الشدة والقسوة ففتك بالنصارى فتكا ذريعاً ، واسترق الناجون من الموت ، وأحرقت عمورية حتى غدت أطلالاً ، وهدمت حصونها وأسوارها ؛ ثم أطلق المعتصم سفراء الأمبراطور بعد أن احتجزهم ليشهدوا ظفره ، وردهم اليه بهذا الجواب ! « نبئوا سيدكم بأنى أديت دين زبطرة »[1] وكان ذلك سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م)

واستمر الصراع وتبادل الغزو بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية مدى قرن آخر . وفى عهد الامبراطور قسطنطين السابع الذى حكم طفلاً تحت وصاية أمه الامبراطورة زوى كاربوبسينا ، أرسل بلاط قسطنطينية الى الخليفة المقتدر بالله سفارة فى طلب المهادنة وتنظيم الفداء . وتصف لنا الرواية الاسلامية حوادث هذه السفارة ، فتقول لنا إن سفيرى ملك الروم وصلا الى بغداد فى المحرم سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) ، فاستقبلا بترحاب وإكرام ، ودخلا على الوزير فى أفخم حفل ونظام ، وقد اصطف حوله الجند فى أتم سلاح وزينة ، وأديا رسالة قيصر ، ثم أخذا الى الخليفة المقتدر فاستقبلهما ومن حوله الوزراء والقادة والجند فى أروع زينة وأبهة وأديا رسالتهما ، فأجابهما الخليفة الى ما طلب قيصر من تنظيم الفداء ، وسير خادمه مؤنساً ليحضر الفداء وعينه أميراً على كل بلد يدخله فيتصرف فيه على ما يريد حتى يغادره ، وسير معه قوة من الجند ، وزوده بمائة ألف وعشرين ألف دينار لافتداء الأسرى المسلمين ، فقام مؤنس بالمهمة وافتدى آلافاً من الأسرى[1] وكانت مسألة الفداء مبعث طائفة من السفارات التى تبودلت بين الدولتين خلال القرن الثالث الهجرى ، وطائفة من المعاهدات السلمية التى عقدت بينهما

وفى عهد الامبراطورة زوى أيضاً بعث حاكم كلابريا (قلوريه) البيزنطى رسله الى خليفة إفريقية الفاطمى (عبيد الله الشيعى) ؛ وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت بها الحكومة البيزنطية أن تؤدى الى الخليفة الفاطمى جزية سنوية كبيرة ، نظير تعهده بحمل أمراء صقلية المسلمين على وقف الحرب والغزوات المستمرة فى قلورية ، واستمرت هذه المعاهدة مدى حين . وان كانت الجزية قد أنقصت خلال ذلك

* * *

ولنترك الآن علائق الدولتين العباسية والبيزنطية لنتحدث عن نواح أخرى من علائق الاسلام والنصرانية ، والسفارات التى تبودلت بينهما

لما قامت الخلافة الفاطمية بمصر ، غدت مصر منذ أواخر القرن الرابع ، قوة اسلامية جديدة تشترك فى قيادة الاسلام وتوجيهه فى المشرق . ولم تكن مصر قبل ذلك مركزاً هاماً للتجاذب السياسى بين الاسلام والنصرانية ، لأنها لم تكن أكثر من ولاية خلافية أو دولة ثانوية تظللها الخلافة العباسية بسلطانها الروحى . على أنه كانت ثمة علائق مستقلة فى هذا العصر بينها وبين الدولة البيزنطية زعيمة النصرانية فى المشرق . وأشهر ما انتهى الينا من أخبار الحوادث الدبلوماسية بين الدولتين فى تلك الفترة سفارة الامبراطور رومانوس الأول (ارمانوس) قيصر قسطنطينية الى محمد بن طغج الأخشيد صاحب مصر (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) ، ورد الأخشيد على هذه السفارة . وحمل كتاب الامبراطور الى الأخشيد رسولاه نقولا واسحاق ، وفيه يطلب الامبراطور تنظيم مسألة الفداء ، وتسهيل المعاملات التجارية لرسله فى البيع والشراء ، وعقد الصداقة المتبادلة بين الدولتين ، غير أن الامبراطور يمن فى نفس الوقت على الأخشيد بأن تنازل لمكاتبته مباشرة ، لأن مقامه كقيصر الدولة الشرقية يحتم عليه ألا يكاتب من هو دون الخليفة ، ولكنه مع ذلك قد خص

(1) Finlay; ibid; III-II

(١) ابن الأثير — ج ٨ ص ٣٤

الأخشيد بالمكاتبة لما نمى اليه من رفيع مكانته وحميد سيرته وفيض عدالته ورحمته . وقد رد الأخشيد على رسالة الامبراطور بكتاب شهير من إنشاء ابراهيم بن عبد الله النجيرمى ، وانتهت الينا صورته بأكملها . وفيه يرد الأخشيد على رومانوس بالشكر على ما أسبغ عليه من حمد ومديح ، ويقول : إنه مهما تكن منزلة ملك الروم فانه لا يرى بأساً أن يكتب اليه ، وقد كتب من قبل الى أقرانه ممن لا يرتفع الى منزلته ، فقد كتب القياصرة من قبل الى خمارويه بن أحمد بن طولون ، والى تكين مولى الخليفة وحاكم مصر وحدها ؛ وينوه الأخشيد بأهمية مكانته وضخامة ملكه وما لمصر من غابر الزمن من ملك باذخ ، وأنه يحكم الشأم وفلسطين الى جانب مصر ، ويشرف على مكة منبع الاســـلام ، ومدينة الرسول ؛ وأنه لم يكن يحب أن يثير فى ذلك جدلاً أو ملاحظة لولا ما تقدم به الامبراطور . ثم يعبر الأخشيد عن حمده وثنائه للامبراطور لما يبديه نحو الأسرى المسلمين من الرفق والرعاية ، ويصرح باجابته الى ما طلبه من تنظيم الفداء ومبادلة الأسرى ، ومن عقد الصداقة المتبادلة ، ومن تسهيل المعاملات التجارية لرسله التجاريين[1] ، وقد صيغت هذه الرسالة الشهيرة فى أسلوب سياسى بديع يجمع بين حزم المخاطبة ، ورقة المجاملة . وفى صيغتها ومحتوياتها ما يلقى ضياء كبيراً على طبيعة العلائق بين مصر الاسلامية والدولة البيزنطية فى أوائل القرن الرابع الهجرى (أوائل القرن العاشر الميلادى)

وكانت الدولة الفاطمية خصيمة الدولة العباسية تنازعها زعامة الاسلام فى المشرق ؛ وكانت السياسة البيزنطية تتجه يومئذ إلى الضرب بين الدول الاسلاميـــة المختلفة والاستفادة من تنازعها وتنافسها ؛ فلما تضاءل سلطان الدولة العباســية ، وبرز سلطان السلاجقة فى المشرق ، اهتمت الدولة البيزنطية بمقاومة هذا الخطر الجديد ومصانعته ، وعملت على أن تكون محوراً للتجاذب السياسى بين هذه القوى الاسلامية المختلفة . وقد وقع بين مصر وقسطنطينية فى منتصف القرن الخامس ، حادث سياسى شهير يوضح لنا طبيعة هذا التجاذب ، هو ســـفارة المستنصر بالله بالفاطمى لبلاط قسطنطينية وما كان من أدوارها ونتائجها . فى سـنة ٤٤٦ هـ

(١) راجع نص هـذه الرسالة بأكمله فى صبح الأعشى — ج ٧ ص ١١ — ١٨

(١٠٥٣ م) أيام الخليفة المستنصر بالله نكبت مصر بوباء ذريع استطال مدى أعوام ؛ واقترن الوباء بغلاء وقحط شديدين ، وأصيبت مصر بصنوف مروعة من الدمار والفوضى . وتعرف هذه النكبة فى تاريخ مصر « بالشـدة العظمى » . فأرسل المستنصر بالله (سنة ٤٤٦ هـ) إلى قسطنطين امبراطور قسطنطينية يطلب منه العون ، وأن يمده بالغلال والأقوات ، ورأت السياسة البيزنطية فى ذلك فرصة سانحة لتحسين مركزها وعلائقها مع مصر ، التى كانت تهددها من البر والبحر ، فلبى الامبراطور الدعوى ، وتم الاتفاق على بذل العون المطلوب ؛ ولـكن قسطنطـين توفى قبل تنفيذه ، وخلفته على العرش الامبراطورة تيودورا ، واشترطت لمعونة مصر شروطاً أباها المستنصر ، واشتبك الفريقان فى معارك شديدة فى البر والبحر . وفى سنة ٤٤٧ هـ ، أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضى أبو عبد الله القضاعى ليحاول تسوية الخلاف ، فذهب إلى قسطنطينية ليحاول عقد الصلح مع بلاطها ، ولـكنه لم ينجح فى مهمته ، لأن السياسة البيزنطية آثرت عندئذ جانب السلاجقة الذين كثرت غزواتهم لأراضى الدولة ، ورأت أن تصانعهم وأن تسعى إلى مهادنتهم ، وسمح لرسول طغر لبك عاهل السلاجقة أن يخطب فى جامع قسطنطينية باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله . ولما وقف المستنصر بالله على ذلك رأى أن ينتقم بالقبض على أحبار القمامة (كنيسة قبر المسيح) فى بيت المقـدس ومصادرة تحفها وذخائرها ؛ واستمرت الخصومة بعد ذلك عصراً بين مصر والدولة البيزنطية[1]

وفى أيام الحروب الصليبية كثر تردد السفارات والمفاوضات بين مصر باعتبارها زعيمة الجبهة الاسلامية يومئذ ، وبين قادة الحملات الصليبية ، وكثر عقد العهود والهدن والمعاهدات . ولا يتسع المقام لاستعراض هذه المبادلات الدبلوماسية التى وصلت يومئذ إلى ذرى التشعب والاتساع ، والتى تملأ فراغاً كبيراً فى أخبار ذلك العصر ؛ ولـكنا نمثل لها بحادثين : الأول سفارة لويس التاسع (القـديس لويس) ملك فرنسا إلى سلطان مصر الملك الصالح حينما جاء إلى مصر على رأس حملته الصليبية (١٢٤٩م) وكتب إلى الملك الصالح باسم الأمم النصرانية يطالبه بتسليم مصر وينذره بالويل إذا أبى ؛ وكان الملك الصالح يومئذ مريضاً فى القاهرة ،

(١) راجع خطط المقريزى — الطبعة الأهليه ج ٢ ص ١٣٧

فتولى كاتبه بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر كتابة الرد ، وفيه رد على الصليبيين وعيدهم وينذرهم بالانتقام ؛ والثانى سفارة من ملك فرنسا أيضاً إلى سلطان مصر يطالبه باعادة بيت المقدس إلى الفرنج ، وأن يفتح لهم ثغرا فى الساحل وتكون البلاد وولايتها وإدارتها مناصفة بين المسلمين والنصارى على أن يؤدى الفرنج لمصر نظير ذلك جزية سنوية ضخمة . والظاهر أن مرسل هذه السفارة هو فيليب الجميل ملك فرنسا ، وأن المرسل اليه هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأنها وردت إلى مصر فى أواخر القرن السابع الهجرى أو أوائل القرن الثامن . وقد نقلت إلينا الرواية الاسلامية تفاصيل الحادث دون أن تعين تاريخه ، وذكرت أن السلطان غضب لجرأة الفرنج حين أبلغ السفراء رسالتهم ، وذكرهم بنكبة دمياط ، وأنذرهم بالويل والثبور وردهم أقبح رد[٢]

وقد كانت مصر منـذ الحروب الصليبية محور الدبلوماسية الاسلامية ومجمعاً للعلائق بين الشرق والغرب ؛ وكانت علائقها مع الأمم النصرانيــة متشعبة النواحى والأطراف ، فمن بلاط قسطنطينية إلى الدول الايطالية ـ البندقية وبيزا وجنوه ونابولى ـ إلى مملكة فرنسا ، وإلى اسبانيا النصرانية ؛ وتاريخ مصر فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر) حافل بأخبار هذه العلائق الدبلوماسية . وقد أورد لنا القلقشندى فى « صبح الأعشى » عشرات بل مئات من الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية التى تلقى أعظم ضياء على طبيعة هذا العلائق ومداها . ونكتفى فى هذا المقام أيضاً بالتمثيل ببعض السفارات النصرانية إلى بلاط القاهرة ؛ فقد أرسل قيصر قسطنطينية مانويل باليولوج سنة ٨١٤ هـ (١٤١١ م) كتاباً إلى الملك الناصر فرج ، على يد تاجر يونانى يدعى سورمش يؤكد ما كان بين والده (أى والد قيصر) وبين والد السلطان (الظاهر برقوق) من أواصر المودة والصداقة ، وبعث معهم عدة من البزاة هدية للسلطان ؛ ورجا السلطان فى كتابه أن يعامل الأحبار النصارى بالرفق والرعاية

ووردت على بلاط مصر سفارة أخرى فى نفس هذا العام (سنة ٨١٤ هـ) من « دوج » البندقية ميميكائيل ، وقدم السفير « نقولا البندق » إلى السلطان ناصر فرج كتاباً من الدوج يبلغه فيه تحياته وثناءه على ما كان يلقاه التجار البنادقة من الرعاية وكرم الوفادة ، ولكنه يحتج على حبس بعضهم فى ثغر دمياط ، ويحتج بالأخص على ما وقع بالاسكندرية من القبض على « قنصل » البنادقة وأكابر التجار البنادقة ، وأخذهم إلى القاهرة مصفدين بالأغلال ، وينوه بأن هـذه الأهانة إنما هى إهانة له بالذات (أى للدوج) ويرجو السلطان أن يعدل عن هذه السياسة إلى الرفق بالقنصل والرعايا البنادقة ، لتحصل الطمأنينة للتجار ويكثرون من التردد على مصر[١] . وهـذه الوقائع التى يشرحها الدوج فى رسالته إنما هى حادث دبلوماسى محض ؛ وقد صيغت فى أسلوب رقيق ينم عما كان لمصر يومئذ من عظيم الهيبة فى نفوس الدول النصرانية ؛ وفيها يستعمل قلم الترجمة السلطانى كلمة « قنصل » ترجمة للكلمة الافرنجية المماثلة ، وهى كلمة ما نزال نطلقها اليوم فى اصطلاحنا الحديث على ممثلى الدول الذين يختصون بأعمال هذا المنصب

***

تلك طائفـة متناثرة من السفارات الخلافية والسلطانية ، والموضوع متشعب الأطراف واسع المدى . بيد أن ما أوردناه من أحاديث هذه السفارات والرسالات المتبادلة يكفى لشرح كثير من خواص العلاقات الدبلوماسية فى تلك العصور . وهناك بالأخص ناحيـة أخرى من علائق الشرق والغرب والأسلام والنصرانية لم يتسع المقام للتحدث عنها : تلك هى علائق اسبانيا المسلمة (الأندلس) بأسبانيا النصرانية وبالأمم الفرنجية الأخرى ؛ فهذه العلائق وحدها تملأ صحفاً فياضة من تاريخ الدبلوماسية الاسلامية ؛ وقد كان عهد الخلافة الأموية بالأندلس عهداً زاهراً فى تنظيم هذه العلائق فى عصر الناصر لدين الله ، ثم ولده الحكم المستنصر ، انهالت وفود الأمم النصرانية وسفاراتها على بلاط قرطبة ؛ فكانت تستقبل فى قرطبة فى أيام مشهورة ومراسيم شائقة بهرت أمم العصر وقصوره ؛ وكان تقاطرها على قرطبة فى ذلك العصر الذى بلغت فيه الأندلس ذروة العظمة والسلطان ، شاهدا بتطبيق هذه الخاصة التى أشرنا اليها فى فاتحة هذا البحث ، وهو أن اتجاه السفارات السياسية من الغرب إلى الشرق ومن الأمم النصرانية إلى الأمم الاسلامية كان فى معظم الأحيان شاهدا بتفوق الشرق والأسلام فى القوة والعظمة والسلطان

« تم البحث »

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢٣ و ١٢٤

(٢) راجع حوادث هذه السفارة فى صبح الأعشى ج ٨ صفحة ٣٦ و ٣٧

الانتحـــار

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

« نعم ، لابد مما ليس منه بد . وستنتهى الحياة على كل حال ، طال العمر أم قصر ، فلم لا أختمها بيدى وأستريح من هذا العذاب ؟ »

كذلك كان يحدث نفسه وهو جالس إلى مكتبه ، وأمامه عدة رسائل كتبها ووضعها فى ظروفها ، وعنونها ، ونشفها ، وألصق عليها طوابع البريد ، ولو أنك فى هذه الساعة سألته عن الباعث أو البواعث له على هذا العزم ، لقال لك إنها ليست مسألة بواعث ، وإنما هى مسألة آلام فى معدته لم يبق له صبر عليها ، وعجز طب الأطباء عن تخفيفها ، وما بقى فى البلد طبيب إلا استشاره ، وما قرأ إعلاناً فى صحيفة عن دواء يلطف هذه الأوجاع إلا اشتراه وجربه ، فذهب كل ذلك مع الريح ، وكانت معدته توسعه إيلاماً كلما أوسعها تطبيباً ، فكأنه لا يضع فيها أشفية ، وإنما يضع فيها إبراً أو أظافر ومخالب وأنياباً ! وما أكل شيئاً إلا نفخه وتخمر فى جوفه وفارت منه غازات ترتقى إلى الصدر والقلب وتثقل عليهما وتخزه هنا وهناك فيروح يبلع الفحم قرصاً وراء قرص ، والغازات كما هى ، لا يمتصها أو يطلقها أو يخفف ضغطها وشكها شئ ، فتلفت أعصابه ويئس من الشفاء ، وعزم آخر الأمر على الانتحار

وكانت له زوجة وبنون ، وبيت طويل عريض فيه خدم وحشم ، ولكن آلامه سودت عيشه ونغصت حياته ، وحرمته ما كان خليقاً أن يفوز به من المتع ، فالموت لا يفقده لذة موجودة ، ولعله يريح آله مما يحملهم معه من المتاعب والغصص ، ويتيح لهم أن ينعموا بماله ، وأن يخلو صفو حياتهم من كدر حياته

أما الرسائل التى أسلفنا الاشارة اليها فكتبها إلى الصحف ينعى نفسه فيها ، ويحذر قراءها من الاعلانات المغرية وما تزعمه من قدرة الأدوية على الشفاء السريع ، وأخرى كتبها إلى «النيابة» حتى لا تزعج أهل بيته بالسؤال والتحقيق ، فان « للنيابة » ولعاً بتقصى أسباب الانتحار كأنما حياة المرء هبة من هذه « النيابة » أو عارية ، فهو مسئول عنها قبلها !

ولما صح عزمه على الانتحار قعد يفكر فى وسائله ، وأدواته ، ولكنه استقبحها جميعاً ، ولم يرض عن واحدة منها ، وبدا له أن من السخافة وقلة العقل أن يلقى بنفسه من فوق السطح مثلاً ، فقد يتحطم جسمه ولا يموت ! أو أن يغرق نفسه فى النيل ، فقد يراه أحمق فيدركه وينقذه ، أو قد تعلق جثته بشىء فتظل راسبة ولا يهتدى اليها أحد ! ولم ير أنه يطيق أن يسدد الى رأسه مسدساً ، أو إلى قلبه ، ولا أن يغمد فى صدره سكيناً أو يبقر به بطنه ، كلا ! هذه الميتات جميعاً قبيحة ، وفى صورها هوان وحماقة ؛ إنما الميتة الحسنة أن يستلقى على سريره ، ويضع إلى جانبه طشتاً على كرسى ، ثم يقطع شرياناً فيلح عليه النزف حتى يموت ، فى سكون وبلا ألم

واستغرب لما انتهى الى هذا الرأى ، أن يرى نفسه منشرح الصدر ، وأنه لم يعد يشعر حتى بتلك الآلام التى أغرته بالتماس الموت وحرضته على نشدانه ! فهز رأسه متعجباً وقال : إذا كانت هذه هى البداية فلا شك أن الخاتمة أحسن . وتمنى لو تيسر له أن يرى نفسه مسجى فى أكفانه والناس حوله يبكون ويندبون ، ويثنون عليه بالذى « كان » أهله ! وتصور نفسه محمولاً على الأعناق وخلفه حشد عظيم من الأصدقاء والكبراء ، وكبر الأمر فى وهمه حتى لخيل اليه أنه الآن راقد فى النعش ، فتحرك حركة من يريد أن يطل على مشيميه ! ثم أفاق من هذا الحلم وابتسم ! ولم تكن هذه ابتسامة السرور ، وإنما كانت ابتسامة الأسف على أنه سيحرم لذة هذا المنظر

ودق الجرس فجاءت الخادمة ، وكانت فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، ولم تكن جميلة ولكنها لم تكن دميمة ، وكان يحنو عليها لأنها يتيمة لا أب لها ولا أم ، ولا أهل فيما يعرف ، فلما أقبلت عليه رق لها قلبه من العطف ، وقال لها :

« اسمعى ! خذى هذه الرسائل وضعيها فى صندوق البريد . فاهمة ؟ وخذى هذا لك . »

ونهض وهو يناولها ورقة بجنيه ، فدهشت المسكينة ، فما لها عهد بمثل هذا الجود ، وما وهبها أحد أكثر من قرش وقالت :

« لى أنا ؟ »

فوضع راحته على كتفها وقال : « نعم لك أنت . ولم لا ؟ إنك فتاة طيبة ، وأنا راض عنك »

فقالت المسكينة : « ولكن ماذا تقول ستى ؟ إنها إذا رأته معى ستظنني سرقته »

فقال : « كلا . لا تخافى . اطمئنى ! »

وأدناها منه وقبلها على خد ، ثم أدار وجهها ليقبّل خدها الآخر ، فلمحت الفتاة أوسط أبنائه ، وخشيت أن يثرثر لأمه بما رأى ، فارتدت عن سيدها محتجة وقالت بصوت عال :

« عيب يا سيدى ، عيب ! أنا بنت يتيمة ، وأنت رجل كبير . . . تؤ . . تؤ . . عيب ! »

فبهت الرجل ، فقد كانت قبلته عن عطف أبوى ، ومن كرم النفس ومروءة القلب ، وساءه جحودها وسوء ظنها ، وأغضبه هذا التأويل ، فقال :

« ولكن يا بنتى ماذا حصل ؟ أى عيب ؟ »

فقالت بصوت أعلى « أقول لك عيب يا سيدى ، لالالا . . أنا فى أمانتك . . حرام عليك يا سيدى ! وأنت رجل كبير »

ولم يكن يرى ابنه فلم يفطن إلى الباعث لها على هذا الاستهجان ؛ أما ابنه فرأى وسمع ، وأسرع إلى أمه ينبئها ويقص عليها الحكاية فنهضت الأم كالمجنونة إلى هذا الزوج الذى يتغفلها ويزعم نفسه مريضاً مدنفاً ويروح يقبل الخادمات ! ومن يدرى ماذا يصنع غير غير ذلك ؟ ومن الذى يمكن أن يثق به أو يصدقه بعد هذا ؟

وكان الرجل قد طرد الخادمة من حضرته ، لما رآها تلج فى الاستنكار وتأبى إلا أن تسىء تأويل الحادثة ، فخرجت ، ولم تكد تفعل حتى دخلت الزوجة كاللبوة الهائجة :

« معلوم ! معلوم ! تدعى المرض ، وتقول ابعدوا عنى وخلونى أستريح ، لتخلو بالخادمة فتقبلها وتحضنها ! ما شاء الله ! هل المريض يعانق الخادمة ؟ »

فطار عقل الرجل ، وله العذر ، وخطر له أن الخادمة هى التى ذهبت تشكو إلى زوجته ، وتذكر فى هذه اللحظة أنه أعطاها الرسائل ، وأن فيها نعيه إلى الصحف والنيابة ، ولكن الغضب صرفه عن الموت ، وفتّر الرغبة فيه ، وأحس أنه لا يريد أن يموت ، بل أن يميت — يقتل هذه الخادمة اللعينة التى يحسن اليها فتسيء اليه ، وتشنّع عليه ، وتحيل البيت قطعة من جهنم ، فترك زوجته تتكلم وخرج يقول :

« أين هى ؟ أين هى ؟ »

وعرف أنها خرجت ، فانطلق وراءها ، ليسترد الرسائل منها ، ويرى له بعد ذلك رأياً فيها — نعنى فى الفتاة . وبصرت به الخادمة مقبلا ، ورأسه عار ، ووجهه مضطرم ، وكانت تحس فى قرارة نفسها أنها ظلمته وتجنّت عليه ، فأيقنت أنه خرج وراءها هائجاً ، وأنه يطلبها ليضربها ، فراحت تعدو ، فلم يسعه إلا أن يجرى وراءها ، ولكنها فى الثامنة عشرة من عمرها ، وهو فى الخامسة والأربعين ، فما عسى قدرة مثله على إدراك مثلها ؟ فأخذ يصيح ويدعوها أن تقف ويناشد الناس أن يمنعوها ، وهى كلما حاول أحد أن يصدها تتفلت منه ، وتزعم له أن سيدها يهم بقتلها وتستحلفهم أن يردوه عنها . وتبعهما أطفال الحارة وأهل الفضول من الرجال والنساء ، وأخيراً لحق بها الرجل ، لأن الناس استوقفوها ، فقبض على يدها وانتزع منها الرسائل وهو يلهث

وكان من السهل بعد ذلك أن يطلع زوجته على الرسائل ، وأن يقنعها بأن من يروم الانتحار لا يتبع الخادمة عينه

ونام صاحبنا فى ليلته تلك نوماً عميقاً هادئاً لا حلم فيه ، ولم يشعر بمعدته حتى ولا فى الصباح ، فتعجب وهو يتمطى ويتثاءب فما نام قط هذا النوم المريح فى السنوات الأخيرة ، وأقبل على الطعام فالتهم منه شيئاً غير قليل ، ولم يكن يفطر قبل اليوم ، وكان يدخن على ريق النفس ، ويستغنى بالقهوة عن الطعام ، فقال لزوجته :

يظهر أن الجرى نفعنى أمس . . والغضب أيضا ! لقد حرك دمى فى عروق فزايلنى الفتور ، ونشطت . . . نعم إن حاجتى هى إلى ما ينشط جسمى ، فليت لى كل يوم خادمة أقبلها فيسوء بى ظنك ، فتثور نفسى ! »

فضحكت الزوجة وقالت : « لقد كنت مجنونا ! وهل ينتحر إلا مجنون ؟ »

فقال : « نعم ، ولكن الأطباء هم الذين أجنونى . والغريب أنى لم أجد واحداً من بينهم يشير علىّ بالرياضة — ليس عندهم إلا وصفاتهم التى لا تنفع . . . أقول لك ! سأكتب هذا إلى الصحف ، وأفضح طب الأطباء »

ولكنه لم يكتب ، لأنه شغل بالرياضة فى ناد قريب من بيته ، فتولينا نحن عنه ذلك ، فهل بلّغنا ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

٥ - قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

اسپلنزانى Spallanzani

صـــلة حديثه

حتى العلماء كانوا فى جانب انبعاث الأحياء من لاشىء . أعلن الطبيعى الانجليزى « رُس » بأسلوب توكيد تحس فيه يقين العالم وثقة العارف ، قال : « إن من يتشكك فى أن الخنافس والزنابير تكونت من رَوْث البقر فانما يتهم العقل والحس والتجربة » . حتى الحيوانات التى هى أعقد من هذه وأكثر أعضاء كالفئران لاحاجة بها الى الأمهات والآباء . ومن قال غير هذا فعليه أن يذهب الى مصر ليعرف كيف تعج الحقول بالفئران التى تكونت من غرين النيل فآذت السكان إيذاء كبيراً

سمع اسپلنزانى كل هذه الأقاصيص التى اعتقد صدقها أناس كثيرون ذوو خطر وعلم ، وقرأ قصصاً أكثر من هذه عدداً وأبعد فى الأغراب ، ورأى الطلبة تتنافس فتتخاصم وتتلاكم لتثبت أن الفأر لاحاجة به الى أب أو أم . ومع كل هذا لم يعتقد فى شىء مما رأى أو سمع . كان فى رأسه تحزب ، وفى قلبه تعرّض وتعصب ، وكثيراً ما نجد العـــلم يتقدم بمثل هذا التعصب والتحزب ، بفكرة ليست من العلم ، وليست مما يقال عادة فى العلم ، ولكن فكرة تخلق فى رأس الرجل العلمى خلقاً ، مبناها كرهٌ لخُزَعبلة شائعة وخرافة سائدة . رأى اسپلنزانى أن الانسان تكفيه النظرة الظاهرة الى الأمور ليقتنع بأن الحياة لاتوجد من عدم ، وبأن الأحياء لاتخلق اتفاقاً من الأوساخ والأقذار ، وإنما هى تولد عن سبب ، وحسب نظام وقانون . ولكن كيف السبيل الى إثبات ذلك ؟

وفى خلوة فى ذات ليلة وقع على كتاب صغير بسيط ساذج قرأه فأفاد منه طريقة جديدة لو اتبعها لعرف بها كيف تنشأ الحياة . كتاب لم يحاجج بالكلام ، ولم يتمنطق بالألفاظ ، بل اكتفى بالتجربة . وأى تجربة ؟ وأى حقائق تتضح منها وتبين فى سهولة ويسر ، وذهب عن صاحبنا النعاس ، ونسى أن الفجر يقترب ، وظل يقرأ ثم يقرأ . . .

قرأ فى الكتاب أن تخلّق الدود والذباب من اللحم الفاسد خرافة أىّ خرافة ، وإن كثيراً من العقلاء الأذكياء يؤمنون بهذا الزعم على سخافته وبطلانه . وبينا هو يقرأ أتى على فقرات من الكتاب كادت تخرج لها عيناه من رأسه استغراباً لها واعجاباً بها ، على وصف تجربة بسيطة ذهبت بالخرافة من نفسه دفعة واحدة ولغير رجعة

وقال لنفسه وهو يتخفف من بعض ملابسه ويميل بعنقه الغليظ الى ضوء الشمعة : « إن « ريدى » هذا الذى كتب الكتاب رجل لاشك عظيم . انظر كيف هو يحل المشاكل حلاً غاية فى البساطة . أخذ قدرين ووضع بكل منهما قطعة لحم ، ثم غطى أحدهما بغطاء خفيف ، وترك الآخر مكشوفاً . ثم أخذ ينظر ، فوجد الذباب يدخل الى اللحم فى القدر المكشوفة ، وبعد زمن قليل وجد بها الدود ، وبعد زمن آخر وجد بها ذباباً جديداً . ثم نظر الى القدر المغطاة فلم يجد بها دوداً ولا ذباباً (١) . فالأمر بسيط جداً . فالمسألة مسألة الغطاء الذى يحول بين اللحم والذباب وتجربة بسيطة جداً ، ولكنها تدل على ذكاء كبير ، فان الناس تناقشوا وتجادلوا وبُحّت أصواتهم آلاف السنين ، ولكنهم لم يهتدوا الى هذه التجربة البسيطة »

وفى الصباح لم يستطع « لازارو » صبراً ، فأسرع الى العمل يطلب حل الأشكال ، لا فيما يختص بالذباب ودوده ، ولكن فيما يختص بالأحياء المكرسكوبية الصغيرة . فان الأساتذة العلماء كانوا قد بدأوا يقولون إنه قد يجوز أن الذباب يخرج من بيض ، ولكن الأحياء التى تدِقّ عن البصر تأتى من ذات نفسها

وأخذ اسپلنزانى يتعلم فى عثار كثير كيف يربى تلك الأحياء ، وكيف يستخدم المجهر . فجرّح يديه وكسر قبابات كبيرة ثمينة ؛ وكان ينسى أحياناً أن يمسح عدساته وينظفها ، ثم ينظر من خلالها الى تلك الحيوانات الصغيرة ، فلا يراها إلا بمقدار مايرى السمك الصغير فى الماء بساحل البحر وقد عكّره بتحريك قاعه ؛

(١) يقصد الدود الذى يتطور فيصير ذباباً

ولم يكن يبالى أن يتحدث عن أخطائه ويقصف بالضحك منها ، فلم يكن فى خلقه ذلك الجمود وتلك الشراسة التى اتصف بها « لوڤن هوك » . وكان مندفعاً متهوراً ، ولكنه برغم اندفاعه وتهوره كان لحوحاً لجّاجاً ، لاينعطف لخيبة ولا يثنيه يأس ؛ قام ليفضح تلك الأكاذيب التى يحكونها عن تلك الحيوانات الصغيرة فلن يقعد حتى يبلغ ما أراد ، ولكن مهلاً . « إذا أنا نصّبت نفسى بغية الوصول الى غاية معينة فلست والله بعالم ، إن العالم يجب عليه أول شىء أن ينزع من قلبه التعصب والتغرض ، وأن يتعلم أن ينقاد للحقائق التى تتكشف له الى حيث تسوق ... » وأخذ يدرس تلك الحيوانات بصبر طويل ، وأخذ يسوم نفسه قَصْدَ السبيل ، وينفى عنها الهوى بقدر الطاقة حتى علمها أن تنصاع للحق ولو كان مرّاً

واتفق فى هذا الوقت أن قسيساً آخر اسمه « نيدم Needham » كان يسره أن يرى نفسه تَحْذَق فن التجربة ، وكان كاثوليكياً تقياً . وكان اسمه أخذ يذيع فى انجلترا وأرلندا بأنه الرجل الذى يعرف كيف ينشىء تلك الأحياء الصغيرة فى مرق الضأن من لاشىء . وأرسل الى علماء الجمعية الملكية البريطانية يصف لهم تجاريبه ، فتفضلوا بالاعجاب بها

قال لهم إنه أخذ من قدر وهى تغلى بمرق الضأن مقداراً ثخيناً من هذا المرق ، ووضعه فى زجاجة سدّها بفلّينة فأحكم سدّها فأصبحت بمعزل عن الهواء ، فلا تدخلها تلك الأحياء أو ما يمكن أن يكون لها من بيض . ولم يكتف بذلك ، بل ذهب فوضع الزجاجة فى رماد ساخن زيادةً فى الحرص والتوكيد . قال الرجل الطيب : « وبهذا لاشك قد قتلت كل ما قد يكون بقى فى الزجاجة من كائن حى أو بيض » . واحتفظ بهذا المرق فى الزجاجة أياما ، ثم نزع سدادها ، وأتى بالعدسة فرأى — وما أخطر ما رأى — رأى المرق يعج بالأحياء عجيجاً

وصاح « نيدم » يقول للجمعية : « إن هذا كشف خطير أىّ خطير . إن هذه الأحياء لا يمكن أن يكون مأتاها إلا من المرق ، فدونكم إذن تجربةً تثبت أن الشىء الحىّ قد يخرج من الشىء الميت » . وقال لهم فيما قال : إن الحساء يُصنع من الحب أو اللوز يقوم مقام المرق سواء بسواء

وثارت الجمعية الملكية والعالم المثقف لما علموا بكشف « نيدم » كشفُ صِـدق لا أقصوصةٌ كاذبة ، وحقيقة تجريبية لا يأتيها الباطل من أمامها أو خلفها ، واجتمع أعضاء الجمعية يفكرون فى جزاء « نيدم » بتنصيبه عضواً فيها ، وهى الجمعية الوقور المترفعة التى تمثل ارستقراطية العلم وتتضمن صفوة العلماء . ولكن فى هذه الأثناء كان اسپلنزانى بعيداً فى إيطاليا يقرأ خبر هذا الكشف المدهش ، وبينا هو يقرأ تقارب مابين حاجبيه ، وضاق حَدَق عينيه ، وأخيراً أبرق وأرعد وقال : « إن هذه الحيوانات لا تنشأ من لاشىء ، لا فى المرق ، ولا فى حساء اللوز ، ولا فى شىء كائناً ما كان؛ إن فى هذه التجربة تدليسة أو خُدعة ، من الجائز أن « نيدم » لا يعرف ذلك ، ولكن لابد أن هناك ثغرة أنا كاشفها لا محالة »

وبدأ شيطان التغرّض يستيقظ فى نفسه ، وقام القسيس يشحذ سكينه لأخيه القسيس . وكان الأيطالىّ رجلاً شريراً سفاحاً يُغْرَم بنحر الآراء التى يخاصمها ، فمن أجل هذا قام يسن سلاحه للانجليزى . وفى ذات ليلة ، وهو قائم وحده فى معمله ، بعيداً عن جلبة الاعجاب التى تتحشى بها دروسه ، بعيداً عن زئاط الصالونات البهيجة حيث تتظرف له السيدات وتتلطف معجبة بذكائه وسعة علمه ، فى تلك الليلة خال أنه وجد الثّغرة التى طلبها فى تجارب « نيدم » . فمضغ ريشته ، وأمرّ أصابعه خلال شعره المشعث ، ثم قال : « لماذا ظهرت تلك الأحياء فى مرق اللحم وفى نقيع الحب ؟ لأن « نيدم » بلا شك لم يسخن زجاجته تسخيناً كافيا ، لأن « نيدم » لم يحكم سدّ زجاجته إحكاماً كافياً »

وبدأ شيطان البحث الصادق يستيقظ فى نفسه . فلم يذهب إلى مكتبه ليكتب لنيدم بالذى ارتأى ، وإنما فزع إلى معمله الترب قد تناثر فى أرجائه الزجاج من كل صنف ، فأخذ من هذا الركن قبابة ، ومن هذا الدرْج بذوراً ، ونفّض التراب عن مجهره ، وبدأ يمتحن موقع ظنه من الحقيقة ، فاما أن ينصره ، وإما أن يقهره . إن « نيدم » لم يسخن حساءه تسخيناً كافياً — وقد يكون من بعض تلك الأحياء أو من بيضها ما يحتمل المقدار الكبير من الحرارة . من يدرى ؟ وتناول اسپلنزانى قبابات من الزجاج كبيرة ، عظيمة البطن ، مستدقة العنق ، وأخذ يغسلها ويدلكها ويدعكها ، ثم جفّفها وصفّفها فبرقت على النضد فكانت كالجند لبس السلاح فى صحوة الصباح . ثم جاء بأصناف مختلفة من البذور ووضع شيئاً من كل صنف فى قبابة ، ثم جاء بشىء من البسلة

وشيء من اللوز ووضع كلا فى قبابه ، ثم صب ماء فى القبابات جميعاً ، ثم صاح : « والآن لن أقع فى الخطأ الذى وقع فيه « نيدم » . فلن أغلى هذه الأحسية دقائق بل ساعة كاملة » ، وأوقد ناره ، فلما تجهزت تساءل : « ولكن ماذا أصنع لسد هذه القبابات ؟ أسدّها بالفلين ؟ ولكن هذه مهما أحكمت فلعلها لا تمنع أصغر الأحياء أن يتسرب إلى الأناء » . وأخذ يفكر : « لا . لا . بل أسيّح عنق القبابة فى النار فألحمه لحماً ، وأختم على الزجاجة ختماً ، فلا تعود هنالك حاجة إلى الفلين ، والزجاج لن يأذن لأصغر المكروب أن يتسرب خلاله » .

وهكذا تناول قباباته البارقة قبابة قبابة ، وأدار عنقها الدقيق فى اللهب حتى ساح والتحم ؛ وكانت تسخن بعض هذه القبابات سخونة شديدة وهى فى يده فتحرقها ، فتسقط القبابة فتنكسر فيسخط ويلعن ، ثم يبدلها بغيرها . فلما أتم لحامها جميعاً صاح : « والآن فالى نار شديدة » . وظل ساعات يرقب القبابات ترقص فى ماء الغلايات ولم يُغلها كلها مدة واحــدة ، فمن القبابات ما أغلاه دقائق . ومنها ما أغلاه ساعة كاملة

فلما بلغ منه الجهد ، وضاقت عيناه من التعب ، قام إلى أخيرة القبابات يخرجها من الماء والبخار يرتفع منها كأنها قطع اللحم المسلوق . وجمع القبابات كلها واختزنها ، واصطبر أياماً على أحر من الجمر يداور فى رأسه ما عساه أن يحدث فيها ، وقام بشيء آخر كدت أنساه ، شيء بسيط جداً : قام يكرّر ما صنع من جديد ، فجهز عدداً من القبابات كالتى سلف ذكرها ، ولكن بدل أن يلحم رقابها سدّها بالفلين ، ثم غلاها ســاعة كاملة ، ثم اختزنها

ثم غاب عنها أياماً أمضاها فى قضاء ألف مشغلة من مشاغل الحياة التى لم تكن تكفى لاستنفاد نشاطه الجمّ الكثير . وكتب إلى العالم الطبيعى « بونت Bonnet » فى سويسرا ينبئه بتجاربه ، وقام إلى كرة القدم وأخذ نصيباً من اللعب ، وضرب فى الريف يطلب صيده ، وذهب إلى البحر يتلهى بسمكه ، وألقى دروساً فى العلم ، وحاضر طلبته فى كل ما هب ودبّ ، فى كل ما ثقل من العلم وجفّ ، وفى كل ما خفّ منــه وطاب ، ثم اختفى فجأة . وتساءل الطلبة والأساتذة : « أين الأب اسپلنزانى ؟ » وتساءلت الهوانم أيضاً : « أين الأب اسپلنزانى ؟ »

الأب اسپلنزانى ذهب إلى قباباته

— ٣ —

ذهب أول شيء إلى قباباته الملحومة ، وكسر رقابها واحدة بعد أخرى ، وغاص فى مرقها بأنبوبة طويلة رفيعة لينال منــه شيئاً ، ثم لينظر هل تكونت فيه تلك الأحياء الضئيلة على الرغم من تسخينه إياه طويلاً ، وعلى الرغم من عزله إياه هــذا العزل المُحكَم عن الهواء وما قد يعلق بترابه من الأحياء . لم يكن اسپلنزانى فى تلك الساعة اسپلنزانى المَرِح البشوش الضحوك . كان فى حركته بطء وفى وجهه وجوم . كان يتحرك كرجل آلىّ صنعوه من الخشب ، وأخذ ينقط من المرق القطرة بعد القطرة تحت عدسته

وكانت تلك القطرات من القبابات الملحومة التى أغلاها ساعة كاملة ، وكان جزاؤه على كل متاعبه أنه رأى — لا شيء ! وبسرعة البرق توجّه إلى القبابات التى لم يكن أغلاها غير دقائق ، وإذا به يكسر رقابها ، وإذا بقطرات منها تحت عدساته ، وإذا به يصيح : « ماذا أرى ! » رأى فى مجال البصر الأدكن حُيَيْوينات صغيرة منثورة هنا وهنا تسبح وتلعب شرقاً وغرباً . حقاً إنها لم تكن مِكروبات كبيرة ، ولكنها كانت مخلوقات صغيرة تجرى فيها الحياة على كل حال . وتمتم اسپلنزانى لنفسه : « إنها تسبح كالسمك ! إنها صغيرة كالنمل ! » . وغاب فى التفكّر ثم قال : « إن هذه القبابات ألحمت إلحاماً فما كان لشيء أن يستطيع دخولها من الهواء . ومع هذا أجد تلك المخلوقات الصغيرة فيها . لا شك أنها مخلوقات كانت موجودة فى المَرَق ، فلم يكْفِ لقتلها اغلاء الماء دقائق قليلة »

وذهب بأيدٍ راجفــة إلى صف القبابات التى سدّها بالفلين — كما فعل خصيمه « نِيدمْ » — ونزع سدادها واحدة بعد أخرى . وما هى إلا ثوانٍ حتى غاص بأنبوبته فى مرقها ، وما هى إلا ثوانٍ أخرى حتى حدّق بعدسته فى قطرات منها . وإذا به يثور ويصخب ويقوم عن كرسيّه فيمسك بكراسة قديمة ، فيكتب فيها على عجل ملاحظات مختصرة بخط كنبش الدجاج ، لو استطعتَ قراءته لوجدت معناه أن إحدى هذه القبابات ذات السداد كانت تتنفّش وتموج بالأحياء ! حتى القبابات التى أُغليت ساعة كاملة كانت « كالبحيرة تعج بالسمك الصغير والحوت الكبير» . وصاح يقول : «معنى كل هذا أن هذا « نِيدم » جاء بتلك الأحياء التى طنطن بها من الهواء . وهذه نتيجة خطيرة فى ذاتها

ولكن أخطر منها هذه الأحياء يصمد بعضها للماء المغلى زمناً . فلا بد لقتله من اغلائه ساعة أو نحوها »

كان هذا اليوم لاسپلنزانى من الأيام الضخمة العظيمة ، وللدنيا من الأيام المذكورة المشهورة ، ولو أن اسپلنزانى لم يكن يدرك كبره وخطره حق الادراك . إنه أثبت إثباتاً قاطعاً أن نظرية « نيدم » نظرية باطلة ، وأن الحيوانات لا تنشأ فى هذه الدنيا الجارية من العدم . وأثبت ذلك بنفس اليقين الذى أثبت به « ريدى » العظيم أن الزعم بأن الذباب ينشأ من ذات نفسه فى اللحم زعم فاسد وحُسبان خاطىء . وفعل اسپلنزانى فوق هذا ، فقد خلّص علم المكروب من ضياع محقق ، وانتشله من خرافة كادت تؤدى به إلى النسيان فالعدم ، فان العلميّين كانوا قد بدأوا يعتبرون علم المكروب صنفاً من العرفان المدلّس الذى لا يتقبل قواعد العلم الصحيحة وطرائقه المستقيمة

واستدعى اسپلنزانى فى هياجه أخاه نقولا وأخته كذلك ، ليخبرهما بتجربته الرائعة . وذهب بعيون واسعة الى تلاميذه يخبرها بأن الحياة لا تنتج إلا عن حياة ، وأن كل حىّ لا بد له من أب ، حتى تلك الأحياء الصغيرة الحقيرة ! إلحمْ قبابتك بحافيها من المرق فلن يدخل اليها شىء . وسخّنها تسخيناً طويلا تقتل ما بها من الأحياء ، حتى تلك التى تستعصى على التسخين الهين القصير ! افعلْ ذلك وأنا ضمين لك ألا تجد بها حياً واحداً ، واختزنْها وأنا ضمين لك أن تبقى خلواً من الأحياء إلى يوم يُبعثون . ثم ترك تلاميذه وذهب فكتب مقالاً بارعاً لاذعاً توجّه فيه إلى « نيدم » بالتقريع والسخرية . فمال عالم العلم واضطرب ، وثار واصطخب . وتجمع المفكرون فى الجمعيات العلمية بلندن وكوبنهاجن وباريس وبرلين ، وتجمهروا فى دورهم تحت أضواء المصابيح العالية وعلى أنوار الشموع الرفيعة ، وأخذوا يتساءلون فى لهفة : أيجوز حقاً أن يكون « نيدم » خاطئاً ؟

ولم يقتصر الجدل الذى قام بين اسپلنزانى ونيدم على الأرستقراطية من العلماء ، ولم يحتبس فى قيعان الجمعيات العلمية النابهة ، بل تسرّب من خلال أبوابها الغليظة الى الشوارع ، وتحسّس طريقه الى الصالونات الفخمة ، وودّت الدنيا لو أن نيدم صادق ، ومالت بقلبها الى مؤازرته . ذلك لأن الناس فى القرن الثامن عشر كانوا يميلون الى اللهو والدعابة ، والى التحرر من كل شىء ، والتشكك فى كل شىء ، والضحك من كل فكرة تنتسب للدين ، ورفض أى سلطان يهيمن على الكون . فلما جاءهم نيدم بأن الحياة تخرج اعتباطاً ، وأن الشىء ينشأ من لا شىء ، صادفت الفكرة هوى فى قلوبهم ، فسُرُّوا منها ، وضحكوا وسخروا من هذا الإله المزعوم الذى لا يستطيع حتى تنظيم كونه ، والسيطرة على خليقته . وساءهم أن تكون تجارب اسپلنزانى واضحة هذا الوضوح ، ومقنعة هذا الأقناع ، فلم يستطع دحضها حُذّاق الكلام ، والبارعون فى اللعب بالألفاظ

(يتبع) أحمد زكى

من صور الحياة فى دمشق

فى صحن الجامع الأموى . . .

للأستاذ على الطنطاوى

فى أُمْسِيَّةٍ طَالِقَةٍ (من صيف سنة ١٣٤٩هـ) خرج الناس — على عادتهم — إلى صحن المسجد الأموى ، فبسطوا فيه البُسُط ، وأسرجوا السُّرُج ، حتى (كاد المسجد يقطُر ذهباً ، ويشتعل لهباً) ، وأقبلوا عليه زُرافات ووحداناً ، يقضون بالصلاة حقّ الله عليهم ، وبالاجتماع والتعاون حقّ بعضهم على بعض ، ويعودون بثواب الله ، واطمئنان النفس ، وراحة البال

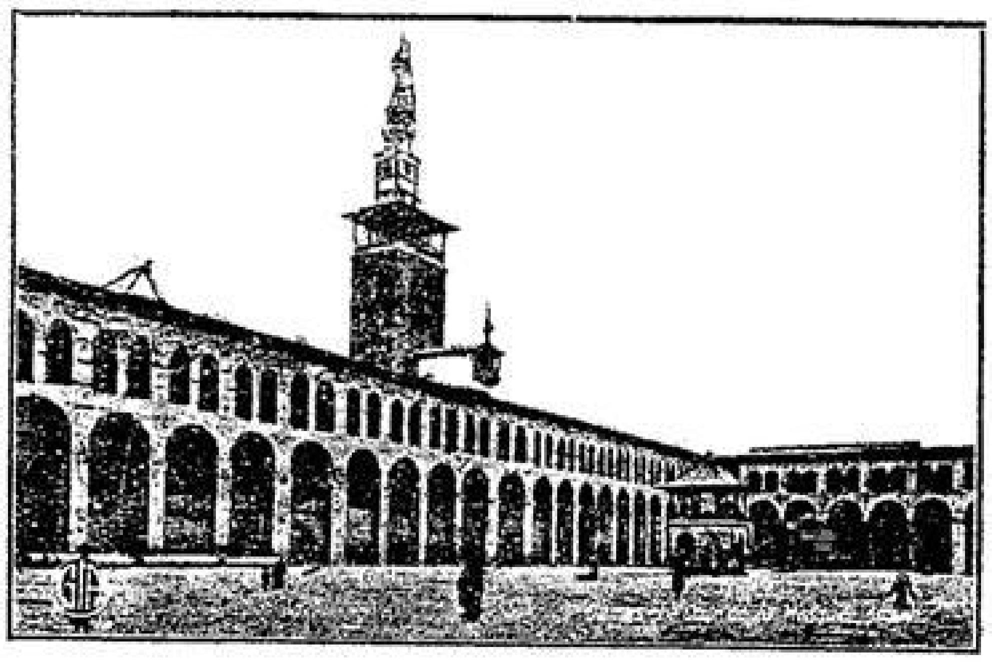
وليس أشهى إلى النفس ، ولا أحلى فى العين ، من صحن الأموى فى ليالى الصيف ؛ وإن المرء ليُطوّف ما يُطوّف ، وينشق عبير الأزهار ، ويسمع تغريد الأطيار ، ويصعد الجبال تتفجر منها العيون ، ويدخل الجنان تجرى من تحتها الأنهار ، ثم يعود إلى الأموى فيراه أجمل من ذلك كلّه ، ويجد فى نفسه حين يجلس فيه هزة طرب ، ونفحة أُنس ، لا يجدهما فى شئ من ذاك . . .

وكانت عشية ريّحة ، تنسم نسَماناً منعشاً ، فامتلأ المسجد بالناس وهم بين متوضئ يخلع رداءه فيلقى به على بلاط المسجد الأبيض الناعم ، ويسرع إلى قبة الماء ، وهى (فى وسط الصحن) وهى صغيرة مثمنة ، من رخام عجيب ، محكم الالصاق ، قائمة على أربع سوار من الرخام الناصع . وتحتها شباك حديد فى وسطه أنبوب نحاسى ، يمج الماء إلى علو ، فيرتفع ثم ينثنى كأنه قضيب (لجين) [1] وقد زينت جوانبها بالمصابيح

(١) هذا الوصف لابن بطوطة ، وقد زارها فى آخر الربع الأول من القرن الثامن ، وفوق البركة اليوم سدة جميلة قد يجلس فيها المؤذنون ، قائمة على أربعة أركان وأربع سوار من الرخام ؛ وقد أجرى إلى هذه البركة ماء الفيجة ، وهو ماء غاية فى العذوبة واللذة ، ينبع من قرية الفيجة (وهى من دمشق على عشرين كيلاً) وعلى الينبوع آثار بناء فخم من أبنية الرومان . وأول من جر هذا الماء إلى دمشق ناظم باشا رحمه الله ، أحد ولاة العثمانيين ، فأجراه فى الطرقات فى أنابيب ، ثم جر قسم أكبر من الماء فى قناة نقرت فى الصخر ، وأدخل البيوت والمساجد وكان تمام هذا المشروع الكبير منذ عامين

ومصلٍّ يبتغى جماعة فلا يلبث حتى يجدها [1] فيقوم فى الصف خاشعاً ، يشغله جلال الله الذى يقف بين يديه ، عن الدنيا التى خلفها وراء ظهره . . .

وجالس إلى حلقة من هذه الحلقات الكثيرة يستمع إلى محدث أو فقيه أو واعظ ، أو ينصت لقارئ ، أو يذكر الله مع الذاكرين ، أو مستند إلى اسطوانة من الأساطين ، أو محتب تحت رواق من الأروقة ، يقرأ فى مصحف ، أو ينظر فى كتاب ، أو يسبح على أصابعه ، أو يتفكر فى شأن من الشئون ، أو ينتظر الصلاة فينعم بجمال المسجد ، ورقّة النسيم ، ويكون من انتظاره الصلاة كأنه فى صلاة . . .



صحن الجامع الاموى : (١) القبة المسماة بالعثمانية وتحتها بركة الماء — (٢) قبة الساعات شرقى المسجد حيال المشهد الحسينى — (٣) منارة العروس (التى يؤذن فيها جماعة من المؤذنين ، وإنما يؤذن فى المنارات الأخرى مؤذن واحد)

وكان حيال قبة زين العابدين (قبة الساعات) فى شرقىّ المسجد ، رجل رثّ الثياب ، ماعليه إلا مزق مُرَدَّمه ، وخلقان بالية . يرنو بعينه إلى الناس تارة ، وينظر إلى المسجد أخرى ، فيقرأ فيه تاريخاً جايلاً ، يقرؤه فى هذه القبة الباذخة ، قبة النسر ، وهى (من أعجب مبانى الدنيا ، ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ، ذاهبة فى الهواء ، منيفة على جميع مبانى البلد) [2] (وليس فى دمشق شئ أعلى ولا أبهى منظراً منها) [3]

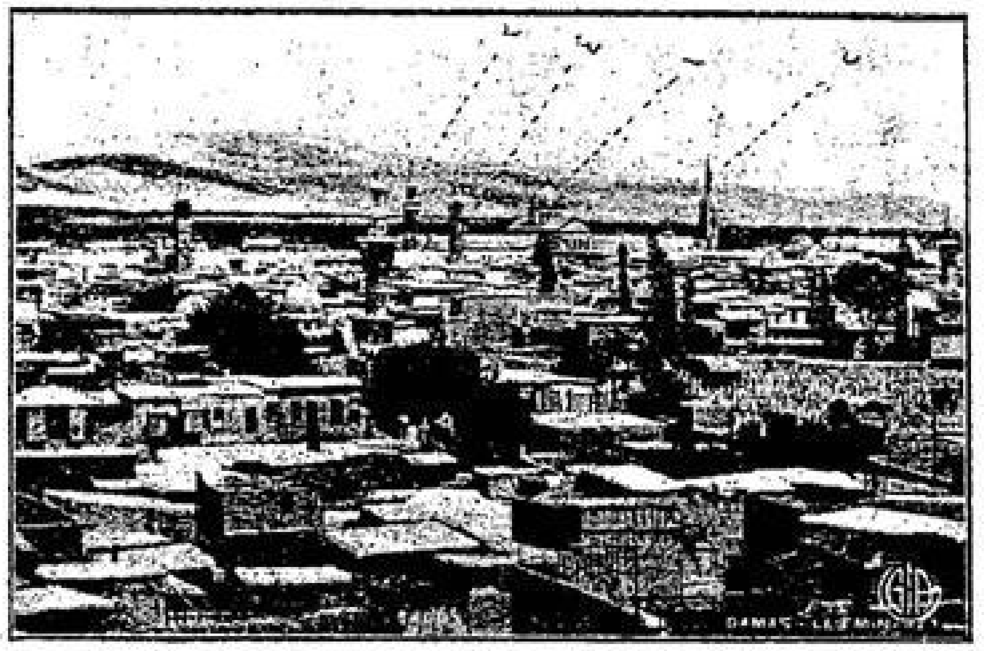
(١) ومن نعم الله على الأموى أنه (إلى يوم الناس هذا) لا يخلو من صلاة قائمة من أذان الظهر إلى أن يغلق المسجد أبوابه ، فلا تنقضى جماعة حتى تشرع أخرى

(٢) ابن بطوطة

(٣) ياقوت . قلت : ولا تزال إلى اليوم كما وصفاها على ما استحدث فى دمشق من بنايات عالية ، فيها ما هو بست طبقات وما هو بسبع . . . وهى بجانب القبة كالطفل بجانب الرجل ، وتحت هذه القبة يجلس المحدث الأكبر فى البلد ، وآخر من جلس تحتها البدر الحسني مد الله فى أجله ورزقه حسناته

وهذه المنارة العالية التي يسميها الناس « منارة عيسى » لما جاء في الحديث أن عيسى عليه السلام ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق ، ويعجب من سموقها وارتفاعها . وهذه المنارة الغربية التي بناها المسلمون ، فأجادوا بنيانها ، ووضعوا فيها العجائب من براعة الزخرف ، ودقة النحت ، والضبط والاحكام . والمنارة الشمالية (منارة العروس) وقد ازّينت وأوقدت فيها المصابيح ، وقام في شرفتها المطلة على الصحن [1] «المؤقت» ليعلن دخول العشاء

***



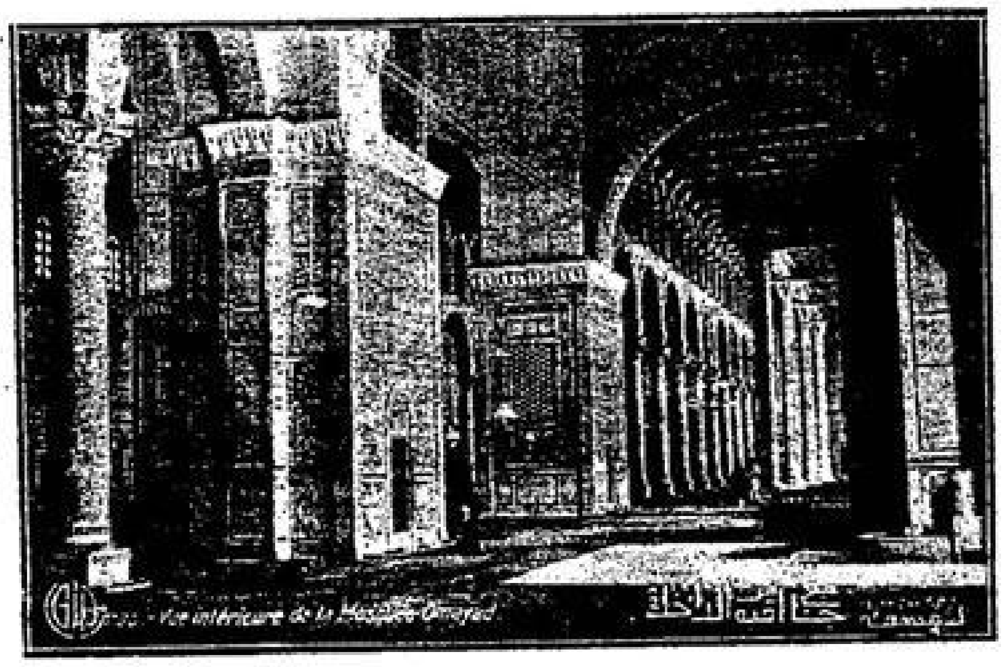
منظر الاموي من الجهة الجنوبية : (١) قبة النسر — (٢) منارة عيسى (٣) المنارة الغربية — (٤) منارة العروس

ودخل المسجد قرويّ له مسألة . فسأل عن مجلس المفتين حتى دُلّ عليه عند قبة عائشة [2] فجاء فعرض عليهم مسألته ، فلم يجد عند واحد منهم جوابها . فذهب يدور على الفقهاء والمحدّثين يسألهم ، فلم يفز منهم بطائل ، فيئس منهم وهمّ بالخروج من المسجد . . . والفقير ينظر اليه ، ويعجب من حاله وحالهم .

وعزّ عليه أن ينصرف آيساً ، فأشار اليه . فلما جاءه قال : اعرض عليّ مسألتك . . .

فضحك القرويّ ، وصاح : أنظروا ياقوم إلى هذا المجنون ! يزعم أنه يجيبني عن مسألتي ، وقد أعجزت المفتين والفقهاء وأصحاب الحديث ! فأقبل الناس على الصوت ، وطفقوا يتكلمون ، فقال قائل : دعْهُ فانه مجنون .. وقائل : لا عليك أن تسأله فلعلّ عنده علماً ... وقائل : سَلْهُ واحمل جوابه إلى المفتين ، فانظر ماهم قائلون ؟

ثم سكتوا ، وسكت كلّ من في المسجد ، وانقطعت أصوات القراء والمدرّسين والذاكرين ، ولم يبق فيهم متكلم ، لأنها قد تكلمت فوق رؤوسهم النبوّة ، وسمعوا : (الله أكبر..) تدوّي في نواحي المسجد ، تهبط عليهم من المآذن كأنما هي هابطة من السماء ، فيها روعة الوحي ، وجلال الدّين ، وجمال الايمان . . . فتقوضت المجالس ، ورُصّت الصفوف ، وتحاذت المناكب ، وقال الامام : الله أكبر . . . فماتت الدنيا في نفوسهم وامّحت منها الشهوات ، وطمست فيها الميول ؛ لأنه مهما يكن من كبير ف . . . الله أكبر ! ولا إله إلا الله !



منظر الحرم من الداخل : ويبدو فيه ركنان من الأركان الأربعة الهائلة التي تحمل القبة وتحتها يجلس المحدث الأكبر — وتبدو سدة المؤذنين رقم (١) وسدة الأمير أو الحاكم رقم (٢) وباب المقصورة التي يجلس فيها الخطيب ، وقد اتخذها معاوية وكان لها باب (لا تزال آثاره واضحة) يؤدي إلى قصر الخضراء الذي كان وراء الجامع القبلي

فلما قضيت الصلاة ، عادوا إلى القروي ، فقالوا له : اذهب فسَلْ صاحبك . فذهب إليه ، فقال :

ياهذا ، زعمت أنك قادر على الجواب ، فهل أنت على قولك ؟

قال : أستعين بالله

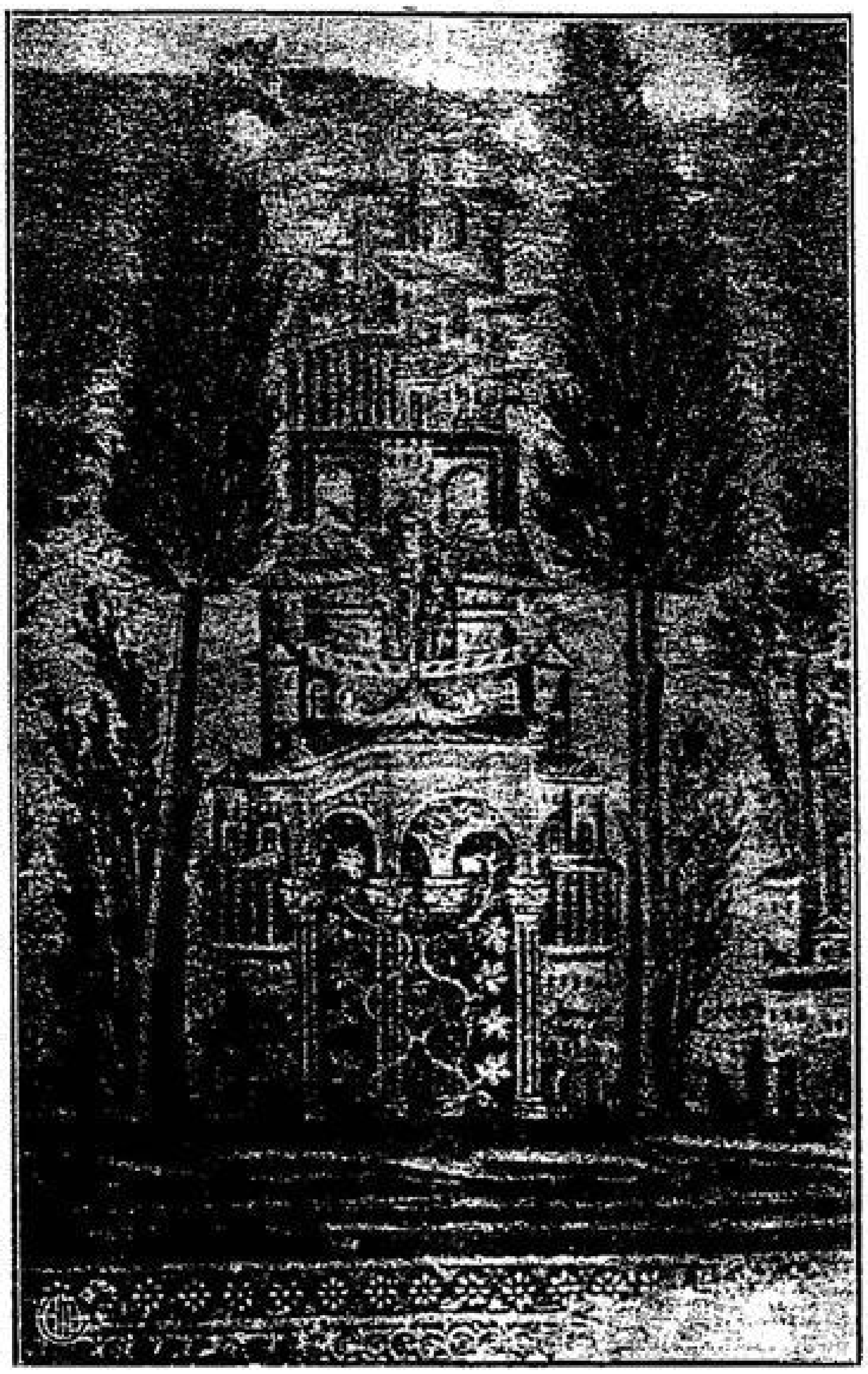
(١) هذه الشرفة مخصصة اليوم للبسيط الذي تعرف به الأوقات ، وكان الذي صنع البسيط الشيخ علاء الدين علي بن ابراهيم الفلكي المشهور بابن الشاطر المتوفى سنة ٧٧٧ هـ ، فطرأ عليه خلل سنة ١٢٩٣هـ فصنع الشيخ محمد الطنطاوي المصري الأزهري نزيل دمشق (وهو جد أبي) بسيطاً غيره ، وحسبه على الأفق الحقيقي ، وزاد فيه قوس الباقي للفجر ، وأنزل القديم وجعل هذا مكانه في يوم مشهود ، وهو فيها إلى الآن ، قال في (الحدائق) : وهو (أي البسيط) موضوع شريف لا نظير له تفرد به الطنطاوي بعد ابن الشاطر

(٢) وهي غرفة عالية غربي المسجد ليس لها إلا باب صغير من الحديد تقوم على ثمانية أعمدة كبيرة من الحجر وفوقها قبة ، ولا طريق اليها الا على سلم ينصب حيال الباب ، وكنا نتحدث ونحن أطفال أن فيها كنزاً حتى فتحها الألمان — كما أذكر — في الحرب العامة . واستخرجوا منها طائفة من الكتب والمصاحف القديمة . ولا أحسبها تحوي الآن شيئاً له خطر

قال : وقد أعجزتْ المفتين وحيّرتهم ، أفأنت تستطيع أن تجيب عليها ؟

قال : أستعين بالله

قال : هي كذا وكذا . . . قال الجواب كيت وكيت . . . وابتدر الفقير الباب !



بعض المناظر الباقية من الفسيفساء ، وهي على الجدار الغربي بجانب باب البريد

وحفّ الناس بالقروي ، فقالوا : هل أجابك ؟ بم أجابك ؟ قل لنا بماذا أجابك ؟

فقال : وما أنا بقائل لكم حرفاً حتى آتي المفتين ، وأسرع وأسرع معه الناس الى المفتين ، وقد عادوا إلى مجلسهم : فقال : أرأيتم ذلك الفقير ؟ قالوا : نعم . قال : قد أجابني عن مسألتي

فضحكوا من جفائه وجهالته ، وقالوا : بم أجابك ؟

قال : بكذا وكذا

فلما سمعوه أخذ منهم الجدّ مأخذه ، ونظر بعضهم إلى بعض وكلهم مشدوه حائر لا يدري ممّ يعجب : أمن كثرة علم الرجل مع رثاثة هيئته . أم من رثاثة هيئته مع كثرة علمه ، ثم انتبهوا ، فقالوا : ويحكم ، أدركوا الرجل ، فان له لشأناً ، وما نظنه إلا آية من آيات الله جاءت ترينا حقيقة العلم ، وسموّ الفقر ، وجلال التواضع . . . أدركوا الرجل !

فقالوا : قد خرج

قالوا : أوليس فيكم من يعرفه ؟

فقال رجل من القوم : والله ما رأيناه إلا في السميصاتية [١] وقد نزلها منذ أيام ، فكان ينظف كنفها ومراحيضها ، ويتخذ مجلسه على الباب . حتى أذنوا له بالدخول . وما رأيناه إلا عاكفاً على صلاة أو مشتغلا بتسبيح ، ولم يكلم أحداً !

قال المفتون : ويحكم ، قوموا بنا اليه . . .

فلما دخلوا عليه ، قالوا له : من أنت ؟

قال : رجل من الناس

قالوا : قد سمعنا جوابك ، وإنا نسألك بالله الذي لا إله إلا هو إلا ما أخبرتنا من أنت

قال : إنا لله وإنا اليه راجعون . . . أما وقد أقسمتم ، فأنا أبو حامد الغزالي

فصاحوا : حجة الأسلام ! وانكبوا على يديه يقبلونهما ، ويسألونه أن يعقد لهم مجلساً في الغد . ثم انصرفوا

***

فلما كان الغد نظروا فاذا . . الشيخ قد فارق دمشق ! [٢]

دمشق — علي الطنطاري

(١) الخانقاه السميصاتية وراء جدار الأموي الشمالي حيال الحديقة التي فيها اليوم قبر صلاح الدين الأيوبي ، وهي قديمة . قالوا : إنها كانت منزل عمر بن عبد العزيز . وقد أنشئت في السنين الأخيرة انشاء جديداً لتكون مدرسة نظامية لتدريس العلوم الاسلامية ، فضاع المشروع بين تسويف الحكام ونسيان الشعب . وانتهى بها الأمر بأن احتلها جماعة التجانيين عنوة ... وجعلوها معقلا من معاقل التجانية بدمشق . والمشهور اليوم بأن اسمها (الشميصانية) بالشين

(٢) أنظر طبقات السبكي جزء (٤) صفحة (١٠٤)

الأوزاعى

٨٨ هـ — ١٥٧ هـ

أحد أصحاب المذاهب المندرسة

بقلم عبد القادر على الجاعونى

حياة الأوزاعى :

يؤخذ من المصادر التى بين أيدينا أن اسمه عبد الرحمن[١] ابن عمرو بن يُحْمِد[٢] وكنيته أبو عمرو ، ولقبه الأوزاعى نسبةً إلى أوزاع[٣] ، ولقد اختلف فى معنى هذه الكلمة ، فمن قائل إنها بطن من ذى الكلاع من اليمن « وقيل بطن من همذان[٤] » ، وقيل إن الأوزاع قرية بدمشق خارج باب الفراديس[٥] . ومهما يكن من أمر ، فان لقبه نسبة الى هذه الكلمة ، إذ أن جميع المصادر تتفق على هذا اللقب ولكنها تختلف فى حقيقة أصله

ومن الثابت تاريخياً أن مهبط رأسه مدينة بعلبك[٦] ، وتكاد المصادر تتفق على أنه ولد سنة ٨٨ هـ[٧]

أما نشأته وحياته فلا نعرف عنهما شيئاً ، لأن المصادر التى بين أيدينا تكاد تكون صامتة كل الصمت ، فهى تتخطى هذا الدور بسرعة هائلة وتبرزه لنا « إمام أهل الشام »[٨] فى عصره ، اللهم إلا ما ذكره ابن خلكان من أنه نشأ فى البقاع

قلنا إن الأوزاعى ولد فى بعلبك ، ونشأ فى البقاع ، إلا أنه لم يقض حياته فى مهبط رأسه ، وسرعان ما انتقل الى دمشق خارج باب الفراديس[٩] ، ثم ارتحل الى بيروت[١٠] تلك المدينة التى قضى بها حياته حتى أدركته الوفاة

(١) ابن خلكان ١ : ٣٤٥ ، النووى ١ : ٣٨٢ ، وطبقات الحفاظ للذهبى ١ : ٣٩ (٢) كذا ضبطها النووى ١ : ٣٨٢ (٣) ابن خلكان ١ : ص ٣٤٦ (٤) نفس المصدر (٥) النووى ١ : ٣٨٣ (٦) النووى ١ : ٣٨٤ ، ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٧) النووى ١ : ص ٣٨٣ ، ابن خلكان ١ : ص ٣٤٦ (٨) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٩) النووى ١ : ٣٨٢ (١٠) طبقات الحفاظ ١ : ٣٩

ولقد كان رحمه الله فوق الربعة ، مائلاً الى السمرة ، خفيف اللحية[١] ، ويظهر أنه كان يميل إلى التزين ، فقد « كان يخضب بالحناء »[٢]

ولقد أخذ العلم عن عطاء وابن سيرين ومكحول[٣] ، والثورى[٤] . ولقد زاد عليهم أبو زكريا النووى صاحب كتاب تهذيب الأسماء رجالاً من التابعين أهمهم قتادة ، ونافع مولى ابن عمر ، والزهرى ، ومحمد بن المنكدر[٥] . وأهم تلاميذه : عبد الله ابن المبارك ، وهقل[٦] وهذا الأخير أصدق الرواة وأثبتهم عن الأوزاعى ، وروى عنه جماعة من الذين سمعهم كقتادة والزهرى وغيرهم[٧]

* * *

كان الأوزاعى من تابعى التابعين[٨] ، وقد قال الذهبى فيه : « هو إمام أهل الشام » وفى موضع آخر يقول : « كان ثقة مأموناً صدوقاً ، فاضلاً حبراً ، كثير الحديث والعلم والفقه »[٩]

ويقول ابن خلكان : « هو إمام أهل الشام لم يكن بالشام أعلم منه »[١٠] . ويقول النووى : « كان إمام أهل الشام فى عصره بلا مدافعة ولا مخالفة »[١١] . ومما يدلك على عظم مركزه فى الفقه أنه أجاب فى سبعين ألف مسألة فقهية ، وقيل ثمانين ألفاً[١٢]

ومما يدلك على علو مقامه وتقدير العلماء له ما ذكره ابن خلكان من أن « سفيان الثورى بلغه مقدم الأوزاعى فخرج حتى لقيه بذى طوى ، فحل سفيان رأس بعيره من القطار ووضعه على رقبته فكان إذا مر بجماعة قال الطريق للشيخ »[١٣] ، وناهيك بمنزلة سفيان الثورى ورفيع مقامه فى العالم الاسلامى . ولا يغيبن عن البال أنه كان فضلاً عن اشتهاره بالفقه إماماً فى الحديث[١٤] . ويقول كولدزهير : روى عبد الرحمن بن المهدى

(١) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٢) نفس المصدر (٣) طبقات الحفاظ ص ٣٩ (٤) ابن خلكان ص ٣٤٦ (٥) النووى ١ : ٣٨٢ (٦) النووى ١ : ٣٨٤ (٧) النووى ١ : ٣٨٢ يظهر أن قتادة والزهرى كانا معاصرين للأوزاعى فسمع عنهم وبذلك نعدهم أساتذته ، ومن ثم رووا عنه ، ولذلك يصح لنا تجاوزاً أن نعدهم من تلاميذه (٨) النووى ١ : ٣٨٢ (٩) طبقات الحفاظ ١ : ص ٣٩ (١٠) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (١١) النووى ١ : ص ٣٨٢ (١٢) النووى ١ : ٣٨٤ (١٣) النووى ١ : ٣٨٤ (١٤) وابن خلكان ١ : ٣٤٦

أن الأوزاعى ليس ثقةً فى الحديث ، ولكنه يعلم كيف يطبق هذه الأحاديث للحصول على حلول المسائل الفقهية (١)

ولم يكن الأوزاعى يتمتع بمركز دينى كفقيه ومحدث فحسب ، بل يظهر أنه كان يتمتع بمركز دنيوى رفيع ، فقد ذكروا أنه كان عظيم الشأن بالشام « وكان فيهم أعز من السلطان » (٢) ولعل القصة الآتية تلقى نوراً على ماذهبت اليه : قال عبد الحميد ابن حبيب بن أبى العشرين : سمعت أميراً كان بالساحل ، وقد دفنا الأوزاعى ونحن عند القبر يقول : رحمك الله أبا عمرو ! فقد كنت أخافك أكثر ممن ولانى » (٣) . وبعد ، فقد تبين لك من هذه الروايات الكثيرة المحفوظة فى الأصول الأدبية والتاريخية ما كان عليه الأوزاعى من الشهرة ، ولا نعرف ، لاندثار مذهبه ، واندفاع المؤرخين فى منح المديح والألقاب ، صحة هذه الأقوال ، ولكنها على أية حال تحمل بين طياتها الشئ الكثير عن عظم الأوزاعى وشهرته

والروايات مجمعة على أن الأوزاعى كان إمام أهل الشام فى عصره ، وأنه كان على جانب عظيم من المقدرة فى الحديث والفقه ، وتطبيق الأول على الثانى للحصول على حلول للمسائل الفقهية المختلفة

مذهب الأوزاعى :

انتشر مذهب الأوزاعى ، المسمى باسمه ، مدة من الزمن فى سورية ، وبلاد المغرب ؛ وذكر صالح بن يحيى أن مذهب الأوزاعى دام فى الشام نحومائتى سنة ، وأن آخر من عمل بمذهبه قاضى الشام أحمد بن سليمان بن حَذْلَم ، وقد ظلت المغرب متبعة مذهبه مدة لا تقل عن أربعين سنة (٤)

وسرعان ما انهزم مذهب الأوزاعى أمام غيره من المذاهب ، والسبب فى ذلك — كما يظهر — أن الأمراء وأصحاب السلطة ساعدوا غيره من المذاهب نصراً لسياسة أو تحقيقاً لغرض ، كما كانت الحالة مع المذهب الحنفى (٥) ، ويقول صالح بن يحيى « ثم تناقص بمذهب الأمام مالك على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموى » (١)

ومن المعلوم ، أن مذهب الأوزاعى هو أحد المذاهب المندرسة ، وياليت التاريخ أبقى على هيكله فى طواياه ، فانه لم يسجل إلا نزراً يسيراً من فقهه (٢) لا يُمكّننا من الحكم عليه . إلا أن هذا النزر يلقى نوراً على ماهيته ، وقد دلتنى قراءته إلى أن اهتمام الأوزاعى بالمسائل الفقهية كان من الوجهة العملية ، ولم يكن كصنوه أبى حنيفة مشتغلاً بالفقه من وجهته النظرية . كذلك دلتني قراءة هذا النزر اليسير إلى أن الأوزاعى لم يكن يستعمل الرأى ، بل إنه — كما فعل غيره — عدل الى الكتاب والسنة ، ففى كلام الأوزاعى عن « سهم الفارس والراجل وتفضيل الخيل » (٣) وعن « المرأة تُسْبى ثم يُسْبى زوجها » (٤) وعن « ماعجز الجيش عن حمله من الغنائم » (٥) وعن « قطع أشجار العدو » (٦) — فى كلامه عن أحكام هذه ، وعن جميع ما ورد فى كتاب « سير الأوزاعى » يستعمل الحديث والكتاب

وقد يطول بنا المقام إن ماشينا فهرس الفصل فى سرده ؛ فلا داعى للتكرار ، ومن أراد التثبت فليرجع إلى هذه الأقوال فى مظانّها (٧)

ولقد ذهب بعض المؤرخين ، أمثال كولد زهير ، إلى أن الفقه الأسلامى قد تأثر بالفقه الرومانى . وأنا أقول ، إن كان هذا صحيحاً ، فأحرِ بالأوزاعى أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأى ، ومن أقربهم الى أتباع الكتاب والسنة . وبذلك قال أبو حاتم : « الأوزاعى إمام متبعٌ لما سمع » (٨) والكتاب والسنة أبعد الأشياء عن التأثر بالفقه الرومانى

(البقية على صفحة ٤٣٨)

(١) II P 12 Muham.Studien (٢) تاريخ بيروت ص ١٥
(٣) النووى ١ : ٣٨٤ (٤) صالح بن يحيى فى تاريخ بيروت ص ١٥
(٥) Moslem theology P 98

(١) تاريخ بيروت ص ١٥ (٢) كتاب الأمام للشافعى ٧ : ٣٠٣ — ٣٣٥ تحت عنوان كتاب سير الأوزاعى ، فى هذا الفصل جملة صالحة عن أقوال الأوزاعى فى المسائل الفقهية (٣) كتاب الأم للشافعى ٧ ص ٣٠٦ (٤) نفس المصدر : ٣١٥ (٥) نفس المصدر : ٣٢٣ (٦) نفس المصدر : ٣٢٤ (٧) كتاب سير الأوزاعى ٧ : ٣٠٣ — ٣٣٥ (٨) النووى ١ : ٣٨٤

١٧ – محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

– ولكن الروح التي قد أصابها الدنس ، والتي تكون كدرة عند انتقالها ، والتي ترافق الجسد دائماً ، وتكون خادمته ، والتي تغرم وتهيم بالجسد ورغبات الجسد ولذائذه حتى ينتهي بها الأمر إلى العقيدة بأن الحقيقة لا تكون إلا في صورة جسدية ، يمكن الانسان أن يلمسها ، وأن يراها ، وأن يذوقها ، وأن يستخدمها لأغراض شهواته – أعني الروح التي اعتادت أن تنفر من المبدإ العقلي ، وأن تخافه وتتحاشاه ، ذلك المبدأ الذي هو للعين الجسمانية معتم تستحيل رؤيته ، والذي لا يدرك إلا بالفلسفة وحدها – أفتحسب أن روحاً كهذه سترحل نقية طاهرة ؟

فأجاب : يستحيل أن يكون هذا

– إنها قد استغرقت في الجسدي ، وقد أصبح ذلك طبيعياً بالنسبة لها ، لا تصالها المستمر بالجسد ، وعنايتها الدائمة به

– جد صحيح

– ويحق لنا يا صديقي أن نتصور أن هذه هي تلك المادة الأرضية الثقيلة الكثيفة ، التي يدركها البصر ، والتي بفعلها تغشى الكآبة مثل هذه الروح ، فتنجذب هبوطاً إلى العالم المرئي مرة أخرى ؛ لأنها تخاف مما هو خفي ، وتخاف من العالم السفلي – فتظل محومة حول المقابر واللحود ، إذ ترى بجوارها – كما يحدثوننا – أشباح طيفية بعينها ، لأرواح لم تكن قد رحلت نقية ، ولكنها ارتحلت مليئة بالمادة المنظورة فأمكن رؤيتها (١)

– يغلب جداً أن يكون ذلك يا سقراط

– نعم ياسيبيس ، فأغلب الظن أن يكون ذلك ، ولا بد أن تكون هاتيك أرواح الفجار لا أرواح الأبرار ، هؤلاء الفجار الذين كتب عليهم أن يجوبوا في مثل تلك المواضع جزاء وفاقا بما اقترفت سبيلهم في الحياة من إثم ، فلا ينقطع تجوابهم ، حتى تشبع الرغبة التي تملؤهم ، ثم يسجنون في بدن آخر ، وقد يظن أن تلازمهم نفس الطبائع التي كانت لهم في حياتهم الأولى

– أي الطبائع تريد يا سقراط ؟

– أريد أن أقول إن من اندفعوا وراء الشره والفجور والسكر ، ولم تدر في خلدهم فكرة اجتنابها ، سينقلبون حميراً وما إليها من صنوف الحيوان . فماذا ترى أنت ؟

أرى أن ذلك جد محتمل

وهؤلاء الذين اختاروا جانب الظلم ، والاستبداد والعنف ، سينقلبون ذئاباً أوصقوراً أو حدأً ، وإلا فالى أين تحسبهم ذاهبين ؟

فقال سيبيس : نعم ، إن ذلك ، ولا ريب ، هو مستقر تلك الطبائع التي تشبه طبائعهم

فقال : وليس من العسير أن نهيئ لهم جميعاً أمكنة تلائم طبائعهم وميولهم المتعددة

فقال : ليس في ذلك عسر

– وحتى بين هؤلاء ترى فريقاً أسعد من فريق ، فأولئك الذين اصطنعوا الفضائل المدنية والاجتماعية التي تسمى بالاعتدال والعدل ، والتي تحصل بالعادة والانتباه ، دون الفلسفة والعقل ، أولئك هم أسعد نفساً ومقاماً . ولم كان أولئك هم الأسعد ؟

لأنه قد يرجى لهم أن يتحولوا إلى طبيعة اجتماعية رقيقة تشبه طبيعتهم ، مثل طبيعة النحل أو النمل ، بل قد يعودون مرة ثانية إلى صورة البشر ، وقد يخرج منهم أناس ذوو عدل واعتدال

– ليس ذلك محالاً

– أما الفيلسوف ، أو محب التعلم ، الذي يبلغ حد النقاء عند ارتحاله ، فهو وحده الذي يؤذن له أن يصل إلى الآلهة ، وهذا هو السبب ، أي سمياس وسيبيس ، في امتناع رسل الفلسفة الحق عن شهوات الجسد جميعاً ، فهم يصبرون ويأبون أن يخضعوا أنفسهم لها — لا لأنهم يخشون إملاقاً ، أو يخافون لأسرهم دماراً ، كمحبي المال ، ومحبي الدنيا بصفة عامة ، ولا لأنهم يخشون العار والشين اللذين تجلبهما أعمال الشر كمحبي القوة والشرف

قال سيبيس : لا يا سقراط ، إن ذلك لا يلائمهم

---

(١) يقصد بذلك أن الأشباح التي يراها الناس عند المقابر ، إن هي إلا أرواح من ذلك الضرب الذي انغمس أثناء الحياة في المادة انغماساً ، ففارقت الأجساد دنسة ملوثة بالمادة ، فشق عليها أن تعيش في ذلك العالم الطاهر النقي ، عالم الأرواح الخفية ، فهبطت إلى الأرض مرة أخرى ، وأمكن للعين رؤيتها

فأجاب : حقاً إنه لا يلائمهم ، وعلى ذلك فاولئك الذين يعنون بأرواحهم ، ولا يقصرون حياتهم على أساليب الجسد ، ينبذون كل هذا ، فهم لن يسلكوا مايسلك العُمْى من سبل ، وعندما تعمل الفلسفة على تطهيرهم وفكاكهم من الشر ، يشعرون أنه لا ينبغي لهم أن يقاوموا فعلها ، بل يميلوا نحوها ، ويتبعوها إلى حيث تسوقهم

ـ ماذا تعني يا سقراط ؟

قال : سأحدثك . إن محبي المعرفة ليدركون عندما تستقبلهم الفلسفة أن أرواحهم إنما شُدت إلى أجسادهم وأُلصِقت بها ، ولا تستطيع الروح أن ترى الوجود إلا خلال قضبان سجنها ، فلا تنظر اليه وهي في طبيعتها الخاصة ، إنها تتمرغ في حمأة الجهالة كلها ، فاذا ما رأت الفلسفة ما قد ضُرب حول الروح من قيد نخيف ، وأن الأسيرة تنساق مدفوعة بالرغبة إلى المساهمة في أسر نفسها (لأن محبي المعرفة يعلمون أن هذه كانت الحالة البدائية للروح ، وأنها حين كانت في تلك الحال ، تسلمتها المعرفة ، ونصحتها في رفق ، وأرادت أن تحررها ، مشيرة لها بأن العين مليئة بالخداع ، وكذلك الأذن وسائر الحواس ، لتحملها على التخلص منها تخلصاً تاماً ، إلا حين تدعو الضرورة إلى استخدامها ، وأن تتجمع وتتفرغ إلى نفسها ، وألا تثق إلا بنفسها وما توحى به اليها بصيرتها عن الوجود المطلق ، وأن تشك في ما يأتيها عن طريق سواها ، ويكون خاضعاً للتغير) ، فالفلسفة تُبيّن لها أن هذا مرئي ملموس ، أما ذلك الذي تراه بطبيعتها الخاصة فعقلي وخفيّ ، وروح الفيلسوف الحق تظن أنه لا ينبغي لها أن تقاوم هذا الخلاص ، ولذا فهي تمتنع عن اللذائذ والرغبات ، والآلام والمخاوف ، جهد استطاعتها ، مرتئيةً أن الانسان حينما يحوز قدراً عظيما من المسرات أو الأحزان أو المخاوف أو الرغبات ، فهو لا يعاني منها هذا الشر الذي تقدره الظنون — كأن يفقد مثلاً صحته أو متاعه ، مضحياً بها في سبيل شهواته — ولكن يعاني شراً أعظم من ذلك ، هو أعظم الشرور جميعاً وأسوأها ، هو شر لا يدور في خلده أبداً

قال سيبيس : وما هو ذلك يا سقراط ؟

ـ هو هذا : حينما تحس الروح شعوراً شديد العنف ، بالسرور أو بالألم ، ظننا جميعاً ، بالطبع ، أن ما يتعلق به هذا الشعور العنيف يكون عندئذ أوضح وأصدق ما يكون ، ولكن الأمر ليس كذلك

ـ جد صحيح

وتلك هي الحال التي يكون فيها الجسد أشد ما يكون استعباداً للروح

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لأن كل سرور وكل ألم يكون كالمسمار الذي يسمّر الروحَ في الجسد ، ويربطها به ، ويستغرقها ، ويحملها على الايمان بأن ما يؤكد عنه الجسد أنه حق فهو حق ، ومن اتفاقها مع الجسد ، وسرورها بمسراته ذاتها ، تراها مجبرةً على أن تتخذ عادات الجسد وطرائقه نفسها ، ولا يُنتظر ألبتة أن تكون الروح نقية عند رحيلها إلى العالم السفلي ، فهي مشبعة بالجسد في كل آن ، حتى أنها سرعان ما تنصب في جسد آخر ، حيث تنبت وتنمو ، ولذا فهي لا تساهم بقسط في الآلهيّ ، والنقيّ ، والبسيط

فأجاب سيبيس : ذلك جد صحيح يا سقراط ؟

وهذا يا سيبيس هو مادفع محبي المعرفة الحق أن يكونوا ذوى اعتدال وشجاعة ، فهم لم يكونوا كذلك ، لما تقدمه الحياة الدنيا من أسباب

ـ لا ، ولا ريب

ـ لا ، ولا ريب ! فليست تفكر روح الفيلسوف على هذا النحو ، إنها لن تطلب إلى الفلسفة أن تحررها ، لكي تستطيع ، إذا ما تحررت ، أن تلقى بنفسها مرة أخرى ، في معترك اللذائذ والآلام ، فتكون بذلك كأنها تعمل ما تعمل ، لا لشيء إلا لكي تعود فتنقضه ، وكأنها تنسج خيوطها — كما فعلت بنلوب(1) — بدل أن تعمد إلى حلها ، ولكنها ستتخذ من نفسها عاطفة راكدة ستتأثر خَطْوَ العقل ، فتلازمه لتشاهد الحقيقيّ والآلهيّ (وهو ليس موضوعاً للرأى) ومن ثم تستمد غذاءها ، وهي تحاول بذلك أن تحيا مادامت في الحياة ، وتأمُلُ أن تلتمس ذوى قرباها بعد الموت ، وأن تتحرر من النقائص البشرية ، أي سمياس وسيبيس ، أن تتبدد روحٌ كان ذلك غذاءها ، وكانت تلك آمالها المنشودة ، عند انفصالها عن الجسد فتذروها الرياح ، وتصبح عدما ليس له وجود

(يتبع) زكي نجيب محمود

(1) بنلوب هي زوجة أوليس ، التي كانت تنقض في الليل ما قد نسجته في النهار ، لتكسب وقتاً من خطابها

أنشودة عبقر

لشاعر الشباب السوري أنور العطار

يا مزهري نغم أغاني الهوى ... القلب يعطي والهوى يسأل

* * *

أأنتِ من عبقرٍ أنشودةٌ ... أرسلها من روحه مُرسَلُ
أم أنت دنيا حفلت بالهوى ... يا طيب ما جاءت به تحفلُ
أهيم في حسنك لا أرعوي ... أنقل من نعماه ما أنقلُ
أغيب في جناته سادراً ... كغيبة النحل إذا ينهلُ
أنت ندائي في سجون الدجى ... ومفزعي في الرعب والموئلُ
وجهك هذا أم رؤى حلوة ... وثغرك اللماح أم سلسلُ
يفتنني منك صبي ناضر ... آذار في أعطافه يرفلُ
مزوّق الأفياء يندى منى ... كأنه من ضحكه جدولُ
تضيع في أمواهه حسرتي ... وما يعاني القلب أو يحملُ
تلهمني عيناك أن الهوى ... إذا طغت أوهامه يقتلُ
إذا احتواك القلب في حلمه ... قلت أقلبي أنت أم جلجلُ
يظل من لوعته راجفاً ... كما انثنى واضطرب السنبلُ
لولاك لم يسكر فؤادي الأسى ... ولم يهدهدني الهوى الأولُ

* * *

دنياي إما غبت عن ناظري ... فوضى فلا سؤل ولا مأملُ
أحسها صحراء عريانة ... موحشة تجوى وتستثقلُ
لا الأنس ضحاك بساحاتها ... وليس فيها من حمى يأهلُ
أرد عنها الطرف مغرورقاً ... غيان في حيرته يوغلُ

* * *

عيشي بقلبي فرحاً شاملاً ... وألهميني منك ما يجملُ
وفسري للروح لغز الهوى ... تكشف فجاجاً سبلها تجهلُ
ما ضرني إن كنت لي أنني ... يكثر حسادي والعذلُ
إن جد في شكوى الهوى شاعر ... ظنوه من ضلتهم يهزلُ

* * *

يهدني شجوي لكنما ... أظل في غمرته أجذلُ
على فمي قيثارة تشتكي ... وفي ضلوعي زهرة تذبلُ
أقتات بالأوهام في وحدة ... الرعب فيها شبح يمثلُ
تطفح بالأهوال أرجاؤها ... والفكر تياه بها مجفلُ
إن خلصت روحي من مجهل ... هب يعمي قصدها مجهلُ
تعمر بالجنة داراته ... والريب يطغى والسنا يأفلُ
أسير فيه لا الهدى رائدي ... وليس لي عن خوضه مزحلُ
أخبط في يهماء من حيرتي ... والليل مرهوب السرى أليلُ
أسمع منه نغماً محزناً ... تصره في أذني الشمألُ
أمام عيني دجى راعب ... يلفني مطرفه المسبلُ
ومنزلي ناء وبي محنة ... فآه لو يقترب المنزلُ
ضججت من محبس هذا الدجى ... فهل يبين النور أو يقبلُ
أواه من مضطرب جاهد ... الغيب محجوب به مقفلُ
ووحشة في القلب ما تمحي ... وظلمة في النفس ما تنصلُ

* * *

هذي حياتي ملؤها حسرة ... وكاهلي من عبئها مثقلُ
كأنني في حقلها غرسة ... ذاوية أخطأها المنجلُ
أفردها القدار في عالم ... نعيمه الخالص مستوبلُ
الروح مني فقدت تربها ... فاندفعت من همها تعولُ
آناً تراها سكنت لا تعي ... كأنها في صمتها الهيكلُ
وتارة كالنار جياشة ... كأنما يغلي بها مرجلُ
كذاك أحيا موجعاً ساهماً ... والموت من هذا الضنى أمثلُ
يا طيفها يرهق قلبي الأسى ... وأنت عني ذاهل تغفلُ
أحببتها مغرية كالدنا ... لا سحرها يفنى ولا يبطلُ
تترك في النفس أحاديثها ... أعذب مما يترك البلبلُ
أشم منها عالماً عاطراً ... يكاد من فرط الشذا يثملُ

* * *

يا مزهري نغم أغاني الهوى ... القلب يعطي والهوى يسألُ
وأنسني الدنيا وأشجانها ... فمن عناء العيش ما يذهلُ
وأنت يا مشعلي المرتجى ... أضئ لي الآفاق يا مشعلُ

* * *

هذا السنا الرفاف من خاطري ... واللحن من روحي مسترسلُ

دمشق — أنور العطار

من أدب الهند

الأمير خسرو

الشاعر الهندى الكبير

بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسينى
الهندى

ترجم صديق الدكتور عبد الوهاب عزام بعض الأبيات الفارسية للشاعر الهندى العلامة الصوفى الكبير الأمير خسرو فى (الرسالة) ، فأثارت الترجمة فى نفسى ذكرى ذلك العبقرى العظيم أيام كنت أطالع بعض دواوينه وأحاول أن أقيس عظمة عبقريته فى الصغر بفهم غير ناضج وإدراك غير كامل فكانت تفيض عن سعتهما ، فكنت أستعين بمسامرات الاخوان ومحادثات الأقران . واليوم بعد نضوج الفهم حين أحاول قياسها أرى أن استقصاء جميع نواحيها لا يزال من غير المستطاع لى ، وإن كانت لذلك أسباب أخرى ، ولكن ما لايدرك كله لايترك كله . أحب أن أبلغ اليوم بقدر الامكان رسالته إلى « الرسالة » ، إذ حياة العظماء والأدباء رسالة وقدوة للأجيال فى كل مكان وزمان ، وأنثر أزهار الحديث عنه على مرقده الخالد الحى وهو ذكراه فى القلوب

***

ولد الأمير خسرو فى الهند فى مدينة بطيالى بقرب دهلى فى سنة ٦٥٢ هجرية [١] من سلالة عريقة فى الشرف من الأتراك المهاجرين الى الهند من مظالم جنكيزخان فى وسط آسيا . فكانت قبيلته المساة « لاتشين » تسكن فى بلدة تكش فى ولاية ماوراء النهر ، قد هاجرت إلى الهند عند هجوم جنكيزخان ؛ وكان أبوه سيف الدين محمود رئيس تلك القبيلة . وكان فى الهند حينئذ شمس الدين التمش ملكاً من ملوك المماليك ، فرحب بجميع المهاجرين وأكرم وفادتهم . وأما أم خسرو فكانت بنت عماد الملك وزير الحربية للسلطان بلبن . وقد روى أمير خوند فى كتابه سير الأولياء عن والده أن فى جوار والدى الأمير خسرو كان يسكن صوفى كبير مسمى « أمير لا تشين » فلما ولد خسرو حمله والده ملفوفاً فى القماش اليه ، فقال الصوفى : « أنتم جئتم إلى بمن سيسبق خاقانى (الشاعر الفارسى الشهير) بدرجتين ؟

مات أبو خسرو وهو فى السابعة من سنه ، ولكن أسرته كانت مثرية فلم تهمل تربيته وتعليمه ، فتربى خسرو فى دهلى ، وكانت دهلى إذ ذاك حاضرة الحكومة منذ ثلاثة أرباع قرن ، فكانت مركز العلوم والفنون ، ومحور الحضارة والمدنية ، ومأوى الفضلاء والعلماء ، ومطمح أنظار أهل الفن والصناعة مما يجعلها ثانية فى الأهمية لبغداد . فى هذا الوسط الراقى تربى خسرو فنبغ فى العلوم والفنون المختلفة ، غير أن ميله الغريزى كان إلى ثلاثة : الشعر والموسيقى والتصوف ، فأجادها فى أقل وقت ، وبلغ فيها درجة الأمامة

بدأ خسرو يقول الشعر وهو فى صباه حتى أصبح الشعر له مهنة معترفا بها من الجميع فى نهاية العقد الثانى . ولكن تقاليد ذلك الزمن والظروف العائلية كانت تقتضى أن يكسب العيش بواسطة مهنته هذه ، فلم يكن له بد من أن يتصل بامراء [١] وسلاطين ذلك الزمن من مقدرى مهنته . فاتصل خسرو فى سنة ٦٧٦ أول مرة بعلاء الدين كوشيل خان المعروف بين الناس باسم « ملك شجو » ، وملك شجو كان ابن أخت الامبراطور غياث الدين بلبن [٢] و « أمير حاجب » (أى رئيس الحجاب) فى بلاطه . ولكنه كان فاضلاً يقدر العلم والفن ، وواسع الصدر كريماً . فقد قال المؤرخ الشهير ضياء الدين برنى ، وهو من معاصرى خسرو وأصدقائه فى كتابه تاريخ فيزور شاهى : « أنا سمعت كثيراً ممن أعتمد عليهم ، ومن الأمير خسرو أنه لم يوجد مثيل الملك علاء الدين كوشيل خان فى سعة الصدر والكرم ، وفى اطلاق الرصاص والصيد ولعب الكرة ، وكان الملك علاء الدين قد نال شهرة واسعة وإن لم تدم ، حتى أن هلا كوخان الشهير أرسل اليه خنجراً

(١) استنبطنا تاريخ ولادته هذا من مصنفه « قران السعدين » الذى أتمه فى سنة ٦٨٨ هجرية وقد ذكر فيه أنه كانت سنه حينئذ ٣٦ سنة ، وأما ما كتبه العلامة المؤرخ المرحوم شبلى نعمانى الهندى فى كتابه « شعر العجم » معتمداً على روايات أخرى أنه ولد فى سنة ٦٠٥ هجرية فهو غير صحيح ومما لا يعتمد عليه

(١) كان فى القرون الوسطى فى الهند « خان » و «ملك» و « أمير » ألقاب رسمية لتبيين منزلة الموظف . فيلقب بـ« خان » الموظف الذى يقدر على حشد مائة عسكرى ، وبـ« ملك » من يقدر على ألف ، وبـ« أمير » من يقدر على عشرة آلاف . هذا كان فى بادىء الأمر ، ولكن بعد مرور الزمن زالت تلك الاعتبارات ، فأصبحت تطلق كلمة « أمير » على جميع موظفى الحكومة مهما تكن منزلتهم عالية

(٢) ملك من ملوك المماليك حكم على الهند من سنة ٦٦٤ هجرية إلى سنة ٦٨٦ هجرية

وعرض عليه أن يكون حاكماً على نصف العراق لو أراد الذهاب هناك . ولـكن خاله الامبراطور بلبن استنكر جريته الخارجة عن العادة [1] . ويذكر المؤرخ برنى فى محل آخر أن شجوّ كان أغزرهم جوداً وأعظمهم منحاً ، وزع جميع أملاكه على الناس ولم يبق لنفسه إلا المعطف الذى ستر جسمه . ومن أمثال جوده وتقديره للشعر أنه أعطى جميع الخيـل فى اصطبله للشاعر خواجه شمس معين ووزع عشرة آلاف تنكه [2] على المغنين عند تقديم قصيدته وإنشادها إياه . ولم يكن خسرو أقل حظاً من هؤلاء الشعراء لتفوقه عليهم وذكائه الخارق . فقد قال قصائد غير واحدة فى مدح شجوّ ، ونحن ننقل إلى العربيـة بعض أبيات من قصيدته البديعة التى تعد مثالاً للغلو الشرقى فى المديح قال :

« إن الأشعة البهيجة لنور الصبح الملون بلون العنبر قد بددت ظلام الليل ، والهلال الأصفر كالمريوق [3] بقرنيه المقوسين كاد أن يغيب عن النظر ، فسألت الصبح : أين شمسك الموعود بها ؟ فأرانى وجه شجوّ المشرق بنوره البازغ ! ثم توجهت الى السماء المرصعة بالنجوم ، فسألتها : من يساعد نجومك فى سيرها ؟ فضحكت من سؤالى العبث ، وأرتنى أيدى الملـك التى جعلتها مستقيمة »

لم يدم اتصال خسرو مع ملك شجّو أكثر من سنتين ، فان قلب شجوّ تغير على الشـاعر خسرو لحادثة حدثت . وهى أن نصير الدين بغراخان النجل الثانى للأمبراطور غياث الدين بلبن كان مرة على مأدبة شجو والشاعر كذلك ، فلما سمع منه شعره استحسنه وسر كثيراً وقدم له طستاً مملوءاً بالنقود الفضية ، فغضب شجو على خسرو لقبوله هذا الانعام وتغير ؛ وعبثاً حاول خسرو بعد ذلك إرضاءه

اتصل خسرو بعد ذلك بنصير الدين بغراخان حاكم سامانا لمدة قصيرة ، ثم انقطع عنه واتصل بعده بسلطان محمد الشهير بخان شهيد ، النجل الأكبر للأمبراطور غياث الدين بلبن ؛ وكان خان شهيد حاكماً على إقليمى البنجاب والسند ، وعندما حضر العاصمة دهلى مع ريع الاقليمين فى سـنة ٧٨٢ هجرية قابل الشاعر خسرو وأخذه الى البنجاب . بقى خسرو مع خان شهيد خمس سـنين ، وكان دائماً موضع العطف الخاص والاجلال والتكريم ، لأن خان شهيد كان أمثل الأمراء على حسب تقاليـد الزمن فى الأخلاق والشجاعة والعلم والأدب ، ومن أكبر مقدرى الفنون والشعر ، فقد وجد فى بياضـــه [1] ثلاثون ألف بيت يعترف بها نقاد الفن على كمال الذوق وحسن الاختيار والعلم الواسع ، وكان بيته ملجأ العلماء ومأوى الفضلاء ، وكان يبذل قصارى جهده فى جمع كبار العلماء والفضلاء والشعراء فى مجلسه ، فقد دعا الشيخ سعدى الشيرازى الشاعر الفارسى الشهير مرتين ، وأرسـل اليه نفقات السفر ووعد ببناء صومعة له فى بلدة ملتان والانعام الـكثير ، ولـكن الشيخ اعتذر لـكبر سنه ، وبعث اليه ببعض غزلياته مكتوبة بيده ، ولفت نظره للشـاعر الأمير خسرو مبالغاً فى مدح ذكائه وفضله [2]

* * *

فى سـنة ٧٨٧ هجرية هجم المغول على الهند ؛ فقام خان شهيد للدفاع عن بلاده وقتل ، ولم يكن الأمير خسرو جليس الأمراء فقط ، بل كان قائداً عسكرياً أيضاً ، فقد اشترك فى محاربة المغول مع سيده ووقع أسيراً فى يدهم بعد أن قتل سـيده فكابد ما كابد على أيديهم من الألم والأذى . ذكر ذلك بكلمات مؤثرة فى رثائه الشهير لسيده ننقل بعض أبياته الى العربية ؛ قال :

« ثم فاجأتنا نازلة من السماء الزرقاء ، وقامت القيامة على الأرض ، إذ فرقت جماعة أصدقائنا مثل تفريق أوراق زهرة الورد بريح الخريف المخربة للحديقة »

ثم وصف آلام أسره فقال :

« إن شهداء المسلمين لونوا الصحراء بلون دمهم ، بينما كانت أعناق الأسارى منظومة نظم الأزهار فى الأكليل . وأنا أيضاً كنت أسيراً [3] خوفاً من أنهم يريقون دمى ، لم تبق فى عروق قطرة من الدم . وكنت أجرى كالماء هنا وهناك مع نفطات لا تعد على قدمىّ مثل الفقاقيع على سطح النهر . وكان لسانى قد جف من العطش الشديد ،

(١) تاريخ فيروز شاهى ص ١١٣ و ١١٤

(٢) اسم للعملة الذهبية والفضية فى ذلك الزمن

(٣) أى من أصابه مرض اليرقان

(١) بياض عبارة عن مذكرة أو كراسة يكتب صاحبه فيه الأبيات المختارة من الشعراء المختلفين . وبياض خان شهيد كان أعطاه أبوه الامبراطور بلبن لمحافظ المحبر أمير على ومنه وصل الى الأمير خسرو

(٢) منتخب التواريخ للبدايونى

(٣) لم يذكر خسرو بمن نفسه أنه كان أيضاً مربوطاً مع الأسارى الآخرين ، فربما ذلك لأنه كان قائداً فى الجيش ، ففرقوا بينه وبين الأسارى الآخرين برجاء مفاداته

ومعدتى التصقت (بظهرى) من الجوع . وهم (أخذوا ثيابى) وتركونى عرياناً مثل الشجرة المجردة من الأوراق فى زمن الشتاء ، أو الزهرة المخموشة بالأشواك . والمغولى الذى أسرنى كان جالساً على الحصان مثل الأسد ، وكانت الرائحة الكريهة تسطع من فمه وإبطه ، وكان على ذقنه خصلة من الشعر الوسخ مثل النبات . فان توانيت وراءه من الضعف كان يهددنى تارة بمقلاته وتارة برمحه ، فكنت أتنهد على تلك الحالة وأرى أن النجاة منها مستحيلة . ولكنى أشكر الله على أنى استعدت حريتى بغير أن يطعن صدرى برمح ، أو يقطع جسمى بسيف » (١)

وحكاية استعادة حريته هى أن المغولى وحاشيته وخيله كلهم نزلوا فى النهر عند غسق الليل لشرب الماء فانتهز خسرو الفرصة وهرب (٢) وبعد وصوله إلى دهلى كتب هذا الرثاء المؤثر الذى شاع وذاع حيث أصبح به خسرو معروفا عند عامة الناس أيضاً

بقى خسرو بعده فى مسقط رأسه فى خدمة أمه حتى تولى الأمر معز الدين كيقباد ، وهو آخر ملوك المماليك ، فاتصل به وصنف له كتابه الشهير « قران السعدين » على طلبه ، ولم تمض مدة قليلة حتى انتقل الحكم من المماليك إلى الأسرة الخلجية . فتولى الأمر أول ملوكهم السلطان جلال الدين خلجى الذى كان يعرف خسرو ويعترف بشعره وذكائه قبل اعتلائه العرش . فمنح خسرو لقب « الأمير » ، وعينه فى منصب أبيه بمرتب ألف ومائتى تنكة فى السنة . ثم رفعه الى منصب محافظ القرآن الملكى . فأصبح من أعضاء بلاط الملك ومن ندمائه . فكتب له خسرو كتابه « مفتاح الفتوح » ، وهو تاريخ غزوات جلال الدين خلجى بالشعر . نشبت حرب أهلية بين العائلة الملكية فقتل فيها جلال الدين وتولى الأمر ركن الدين خلجى لمدة أقل من سنة ، ثم تولى علاء الدين خلجى ، فاتصل به الشاعر خسرو ، وهو أطول اتصالاته بالأمراء ، لأن حكومة علاء الدين دامت عشرين سنة ، وهى أيضاً مدة أكثر انتاجا فى حياة خسرو . فقد صنف فى أقل من ثلاث السنين الأولى من تلك المدة خمس روايات قصصية منظومة وهى : (١) مطلع الأنوار ، (٢) شيرين وخسرو ، (٣) ليلى والمجنون ، (٤) آئين سكندرى (أى القانون الأسكندرى) ، (٥) هشت بهشت (أى الجنات الثمان) ، وتسمى كلها أيضاً « بنج كنج » أى « الخزائن الخمس » . ودشنها لشيخه فى الطريقة الصوفى الولى الكبير مولانا « نظام الدين أولياء » وأهداها إلى السلطان علاء الدين . وبينما كان مشغولاً بتصنيف ليلى والمجنون منها فقد أمه وأخاه فى سنة ٦٩٧ فحزن ، ورثاهما بكلمات تسيل الدموع فى مصنفه ، ننقل رثاءه لأمه الى العربية قال :

« وفى هذه السنة فقدت نورين من نجمتى وهما أمى وأخى ،
أسبوع واحد من سوء حظى فقدت فيه قمرين !
إن حظى كبسنى من جهتين ، والفلك بددنى بلطمتين ،
فأصبح نوحى مزدوجاً وغمى مضاعفاً ، واحسرتاه ! أنوح على الاثنين
واأسفاه ! ألمان لمثلى ! إن شعلة واحدة كانت تكفى لمزرعى
إن صدراً واحداً لا يتحمل ثقلين ، ولا رأساً واحداً وجعين ،
إن أمى تحت التراب ، فلا غرو أن ألوث رأسى بالتراب
يا أمى ! أين أنت ؟ لم لا ترينى محياك ؟
اطلعى ضاحكة من قلب الأرض ، وارحمى بكائى المر !
إن فى كل أثر من قدمك لى تذكاراً من الجنة ،
إن وجودك كان حافظاً لنفسى ومعيناً ومتكأ لى ،
يوم كنت تتكلمين بشفتيك كان نصحك صلاح أمرى ،
واليوم ختم على (لسانى) وسكوتك لا يزال ناصحاً

***



ضريح الأمير خسرو وهو من رخام أبيض ناصع يتصل به مسجد فى ضاحية من ضواحى دهلى

صنف خسرو فى عهد علاء الدين ما عدا بنج كنج (أى الخزائن الخمس) ثلاثة أو أربعة كتب أخرى سنبينها عند كلامنا عن مصنفاته ، وفى سنة ٧١٥ هجرية توفى علاء الدين فتولى الأمر قطب الدين خلجى فاتصل به خسرو وصنف فى عهده « نه سبهر » أى (الأفلاك التسعة) وقدمه اليه فسر السلطان منه جداً وأنعم

(١) منتخب التواريخ للبداونى
(٢) وهذه الحكاية قد ذكرها خسرو فى مصنفه « دول رانى »

ملخص محاضرة :

الفن الفارسى

للشاعر الانكليزى Lawrence Binyon

« وفد على مصر فى هذه الأيام الشاعر الانكليزى المشهور مستر لورنس بنيون أمين القسم الشرقى بالمتحف البريطانى ، وألقى أربع محاضرات تناول فيها أغراضاً مختلفة فى الفن والأدب ، وهذه أولى محاضراته عن الفن الفارسى

إن الكلام عن الفن الفارسى يستوجب من المحاضر أن يلم فى بادئ الأمر بالموقع الجغرافى الذى كان له أثر لاينكر فى توجيه الرسم الفارسى ناحية خاصة ، يلاحظها كل من له اهتمام به وتعلق بدراسته ، وإن وقوع فارس بالقرب من بلاد العرب وتوسطها بينها وبين بلدان الشرق الأقصى صبغ الفن الفارسى بصبغة خاصة وإن ظل مع ذلك محتفظاً بروحه القوية ، وشخصيته البارزة التى تميزه تميزاً واضحاً جلياً من فنون الأمم الأخرى سواء أكانت غربية أم شرقية ، فلهذا الفن مميزاته الخاصة وروحه المستمدة من صميم الواقع

وكما أن للظروف الجغرافية تأثيراً ، كذلك للظروف السياسية أثراً لا يمكن للباحث أن يتجاهله أو ينكره ، فقد تغلبت على هذه البلاد عدة دول حاكمة كالأغريق فى القديم والساسان والمسلمين ، وكانت الدولة الساسانية آخر الدول الفارسية التى حكمت إيران ، والتى توطد لها العرش زهاء أربعة قرون منذ القرن الثالث حتى السابع الميلادى ، إذ ظهرت قبل ذلك بقليل دولة الاسلام الفتية ، فاكتسحت مافى طريقها ، وخفق علم الاسلام على كثير من ربوع العالم ، ولما كانت فارس قريبة من بلاد العرب فقد اتجهت اليها أنظارهم بطبيعة الحال والموقع ، ولم يلبث العرب أن خضدوا شوكة دولة بني ساسان واستتبت أقدامهم فيها ، كما أخذ الدين ينتشر فى ربوعها ، ومن ثم أخذ الفن الفارسى من رسم الى تصوير الى شعر يتأثر بعض الشىء بهذه الظروف الجديدة التى أحاطت به ، وربما كان ذلك أوضح فى الشعر منه فى الرسم والتصوير

وهنا نرى لزاماً علينا أن نشير الى أن العرب حين غزوا هذه البلاد كانت هناك نهضة فنية ، تدلنا على ذلك تلك الآثار التى أماطت اللثام عنها بعثة ألمانية ، إذ عثرت على كثير من هذه الرسوم فى بلاد الأفغان ، وأقدم هذه اللوحات بوذية ، ولكنها على درجة عالية من الأتقان

وقد قامت فى ذلك الحين مدرسة فنية فى بغداد التى كانت مركزاً ثقافياً إسلامياً مهماً ، وإذ كان العرب قد نشروا سلطانهم على هذه الربوع ، فقد أدوا للفن خدمة كبرى بأن كانوا وسيطاً قوياً فى نقل الروح الغربية الى الشرق ، وتطعيم الفن الفارسى بالفن العربى ، وذلك بأن العرب اتصلوا اتصالاً مباشراً بالأمم الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وتعاملوا معها فى جميع مرافق الحياة . وإذا كان الشىء بالشىء يذكر ، فلا بد لنا من أن نشير إلى أن أثر الفن الصينى كان أقوى من تأثير الفن الأوربى فى التصوير الفارسى ، وإن المقارنة بين الفنين الصيني والفارسى لتُظهر لنا هذا أجلى من المقارنة بين الثانى والغربى ؛ وكان الاختلاط فى أول الأمر قليلاً ، ولكن الظروف المحيطة غيرت الأمر الواقع ، وزادت الصلات توثقاً ، إذ ظهرت دولة المغول ، وهم من الجنس الأصفر تحت زعامة القائد المعروف تيمورلنك ، فاتصلت البلاد الصينية بربوع الشرق الأدنى ، وأصبحت هذه البلاد جميعاً أكثر ارتباطاً من ذى قبل . وهنا كان عصر ازدهار وقوة للفن الفارسى !

عليه بفضة تساوى وزن الفيل ، وبعد وفاة قطب الدين تولى الأمر نصير الدين خلجى لمدة أقل من سنة ، ثم انتقل الأمر من الأسرة الخلجية إلى الأسرة التغلقية ، وكان أول ملوكها غياث الدين تغلق فاتصل به خسرو . وصنف له « تغلق نامه » أى كتاب تغلق فى سنة ٧٢٥ هجرية وهو آخر تصانيف خسرو لأنه مات فى تلك السنة

عاش خسرو ٧٣ سنة وصنف ٩٩ كتاباً أكثرها فى الشعر باللغة الفارسية والهندية ضاع جلها إلا القليل ، وعاشر عشرة ملوك ، وإن لم تجاوز مدة بعض منهم سنة ، بينهم ملوك الأسرة الخلجية الكاملة ؛ وكان خسرو عالماً فاضلاً وشاعراً مفلقاً ، وموسيقياً بارعاً ، وصوفياً كبيراً . وسنتكلم عن نبوغه فى الشعر والموسيقى والتصوف فى المقال الآتى إن شاء الله ؟

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندى

ذلك بأنّ الفنانين الفارسيين حين شاهدوا آثار المصورين الصينيين أعجبتهم هذه البراعة الفائقة والدقة المتناهية فى إبراز العواطف والمناظر المختلفة فى صور محسوسة تسترعى الانتباه ، وتشهد لهم بالعبقرية والفنّ ، إذ كانت هذه الرسوم تستلزم التفكير الدقيق فى كيفيّة تهيئتها وإبرازها على هذا النحو العجيب ، ومن ثم بدأوا يجارونهم وينهجون سبلهم ، ويترسمون آثارهم وقواعدهم ، ورأوا أنّ إبراز الاحساس بالواقع عند الصُّفر أكثر مما عندهم ، كما شاهدوا الدقة العظيمة والمقدرة الرائعة فى تجسيم كل ما تقع عليه العين فى صورة جذابة ، كما أنهم لم ينسوا أن يستلهموا الطبيعة صوراً ويستمدوا منها فناً جعلنا نقف موقف الاجلال إزاء هذا الفنّ العالى المجسّم ، حتى إنهم صوّروا تسلسل المياه مما لا ينقصه إلاّ الخرير حتى تكون طبيعة ثانية من عمل المرء بجانب الطبيعة التى أوجدها الله

وقد يظهر لنا من هذه الكلمة السالفة أن الفن الفارسى كان صورة ثانية للفن الصينى ، أو هو فن صينيٌ رسمته ريشة فارسية ، ولكن الحقيقة هى أنه بالرغم من تأثره الى حدّ ما بالرسم الصينى فقد ظل محتفظاً بشخصيته وروحه وطبيعته الفارسية ، ولا يشين الفن الايرانى[1] أن يكون قد أجلّ الفن الصينى ؛ ومهما يكن الأمر فهناك فروق تظهر جلية للباحث المدقق ، حين تعرض عليه صورتان لمنظر واحد أولاهما لمصور صينى والأخرى لفارسى ؛ ونحن حين نستعرض صورتين لمنظر من مناظر الطبيعة مثلاً ، تبارت فى إحداها ريشة صينية وفى الأخرى فارسية ، فاننا نلاحظ فى الأولى التحرر من القيود الطبيعية وعدم التزام وحدة معينة ، بل نرى كيف يخضع الفنانُ الطبيعة لريشته ، بينا نلمس تناسق الأجزاء وترتيب بعضها بالنسبة للبعض الآخر فى صورة الفنان الفارسى ، وربما سأل السامع نفسه إزاء هذا عن العلة أو العلل الحقيقية والمباشرة أو غير المباشرة التى أدت الى افتراقهما بعضهما عن بعض بعد أن اتحدا فى الفكرة ، أهى الخيال ؟ أم الاحساس ؟ أم طبيعة كلّ منهما ؟ وقد يكون ذلك أحد هذه الأسئلة ، وقد تكون جميعها متحدة ، ولكن هناك أمراً لا بد منه ، ولابد أن نذكره إذا أردنا إجابة شافية توصلنا أو تقربنا الى بغيتنا ، ذلك أن استيعاب الفنان الايرانى للمسافات لم يكن كاستيعاب الصينى لها واهتمامه بها ، فبينا نجد عند الأخير الطلاقة الفنية ، والاحساس بالحرية ، إذا بنا نجد الفنان الفارسى يحدد قبل البدء ، ويرسم لريشته محيطاً لاتتعداه ، ومجالاً لاتخرج عنه بحال من الأحوال

وصفة ثانية كان يمتاز بها الفنان الفارسى على وجه العموم ، تلك هى أنه لم يكن ليشرد بريشته كثيراً ، وربما عد هذا فى نظر بعض نقاد العصر الحاضر جموداً ، وقد يخالفهم فى نظرتهم هذه كثيرون ، ولكل من الفريقين وجهة ورأى يباين رأى الفريق الآخر ، وقد يتعصبون لهذه الأفكار والآراء ، ولكنهم يتفقون فى أنه عمل رائع جدير بالاعجاب ، وسواء أكان الحق فى جانب هذا أم ذاك ، فذلك أمر مرجعه الى الذوق الفنى والشعور المرهف الذى يستشف الحقيقة خلال الطلاسم ، ويتلمس الشعلة من بين أسداف الظلام ، ويتعرف الصواب والحق مهما تكالبت أسباب الباطل ، ويستخرجه كما يستخرج التبر من الثرى نقياً

ولعل أقرب الأمثلة على هذه الصفة التى أشرنا إليها آنفاً : أعمال (بهزاد) وهو أكبر فنان فارسى تبوأ ذروة المجد من رسومه الفنية ، وكان ممتازاً فى إخراجها ، قويّ الافصاح عن مقصوده ، ولكنه بالرغم من هذا المجد التالد والفنّ الخالد ، فاننا لا نجده قد قام بأية ثورة على هذه القيود — كما يسميها البعض — ولم يحاول أن ينتزع نفسه من ربقة التقاليد وترسّم الآثار ، ولم نشهد له محاولة ولو ساذجة تجعلنا نقول إنّ هناك تباشير تطوّر أو حركة تجديدية ضد ما تآلفوا عليه ، بل رأيناه وخلفه يسيرون على منهج واحد ، كأنما استسهلوا هذه الطريق المعبّدة ، ولكنهم على أى حال ، وإن كانوا قد انصرفوا عن هذا الطريق ، إلا أنهم جميعاً كرّسوا جهودهم وصرفوا قواهم فى إبداع آيات خالدات فى الفنّ ، تشهد لهم بالعبقرية ، وحسبهم فخراً أن يهتمّ المتحف البريطانى فى انكلترا بلوحات الفنانين قاسم على والسعدى وغيرهما من أقطاب الفنّ الفارسى

وعلى العموم يمكننا أن نقول إن الفن الفارسى فن لا يكتفى بالنظرة الواحدة للحكم عليه ففى ذلك شىء كبير من الاستبداد ، وهو فنٌ عالٍ يشهد للفرس بالدقة والبراعة

تلخيص وترجمة

حسن محمد محمود

---

(١) كلمة إيرانى هنا تعادل لفظة « فارسى » وقد طالعنا فصلا قيما فى مجلة (Young Asia) لأديب فارسى أثبت فيه أن اللفظ الأول هو الأصح وعلى كل فقد استعملنا اللفظين لمعنى واحد تحاشيا من التكرار

القصص

من الفن القصصى الحديث

زوج آخر ساعة

Le Mari de la Dernière Heurc

للقصصى الأنجليزى ريس ديفز Rhys Davies

ترجمة على كامل

« ريس ديفز من أصغر القصصين الانجليز سناً . وهو كغيره من الكتاب الانجليز المعاصرين شديد التأثر بالمذاهب الجديدة فى علم النفس ، فنراه فى قصصه يعمد إلى التحليل الدقيق لشتى العواطف والنزعات التى تعصف بكل نفس إنسانية . والقصة التى نترجمها له اليوم قد ترجمت إلى عدة لغات حية »

نزلت مارية من غرفة نوم والدها وقالت لعمتها فى هدوء وحزن كعادتها دائماً :

ـ لقد مات !

ـ فرفعت عمتها (آن) عينيها من فوق الانجيل الذى كان بين يديها ، وفتحت فاها حتى آخره وقد انتابها فزع عظيم ، ثم بحثت عن منديلها ومسحت به عينيها العجوزين اللتين لا تتسرب اليهما الدموع ، ثم بكت وهى تقول :

ـ إنهم يذهبون جميعاً قبلى !

وفتحت مارية الدولاب وتناولت منه (التريكو) وجلست أمام النار كعادتها كل مساء ، وأخذت تشتغل باهتمام رغم ضجرها وتعبها من السهر الطويل وعنايتها بالميت

فنظرت اليها عمتها وهى تكاد تصعق من الدهشة ، ودب فى جسمها النشاط وصرخت فى وجهها قائلة :

ـ تحركى يامارية ، ليس هذا وقت (التريكو) . اذهبى وابحثى عن الستائر لنغطى بها النوافذ . ويجب أيضاً أن نغير للميت ملابسه ونقوم له بكل ما يلزم

على أن مارية لم تتحرك ، وبرغم أنها كانت منهوكة القوى كان يظهر عليها دلائل فرح مرير ، فقد كان يبدو لها أنها تحررت مرة واحدة من قيود عنيدة مؤلمة ، كانت تقول بصوت منخفض مخاطبة عمتها (آن) :

ـ لقد كان والدى رجلاً قاسياً يا عمتى (آن) ، وكان كل يوم عنده يوم أحد . لقد جعل من هذا المنزل (مدرسة يوم الأحد) وكم من مرات حقدت عليه وكرهته ، وكانت والدتى تشبهه . وكنت أنا بين الاثنين كأننى فى جحيم لا يطاق

فى أثناء ذلك كانت عمتها (آن) تصعد تنهدات الحزن والألم . قالت الفتاة :

ـ إنها الحقيقة المرة ، والآن وقد مات الاثنان فانى أستطيع أن أحكم عليهما . اقد جعلا منى فتاة عجوزا لم تر من متع الحياة شيئاً . فكنت لا أعرف غير الانجيل من الصباح وعند الظهر وفى المساء

كانت الفتاة تتكلم بصوت ملؤه الحقد والعداوة ، وكانت ترتعش حسرة على نفسها . كانت تفكر فى تلك الجثة الراقدة فى الطابق الأعلى والسخط مستول عليها . كانت تريد البكاء ولكن دمعة واحدة لم تجد بها عيناها . وكان وجهها الغليظ الذى بدا عليه الغضب والكبرياء منكباً على (التريكو) الذى بيدها . قالت :

ـ والآن وقد ضاعت خير أعوام حياتى فى العمل فى سبيلهما ، فسأبقى بقية حياتى وحيدة ، ولو كانا تركانى أخرج من المنزل لاستطعت أن أجد الفرصة لأتزوج

قالت عمتها :

ـ مهلاً . إنك لازلت فى الثلاثين من عمرك ، وفى استطاعتك الآن أن تجتهدى فى إيجاد زوج لك . إنك يامارية فتاة قويمة الأخلاق تحسنين الطهى . إنك لست كفتيات اليوم

الطائشات ، وهناك كثير من الرجال الذين يبحثون عن فتاة مثلك ليتزوجوها

واستمرت مارية تشتغل فى صمت . . . ثلاثة وثلاثين عاماً ! قبيحة المنظر غليظة الجسم منكسرة القلب ! أى رجل ذلك الذى يريد مثل هذه الفتاة فى هذه الأيام ؟

وتملكها خوف عظيم وهى تشتغل ، كم من الأشياء فقدتها فى الحياة ! لقد أدركت تماماً أنها كانت تعيش بعيدة عن عالم المسرات والملذات ، والآن فات وقت التمتع . ولكن ألم يعد هناك أمل فى شئ ؟ قالت الفتاة :

– إنني أظن يا عمتى (آن) أنه يحسن أن أبيع هذا المنزل وأقيم على ساحل البحر

فأجابت المرأة العجوز على الفور فى غضب :

– لا تبادرى ببعثرة المال الذى تركه لك أبوك . هلا فكرت فىّ ؟

وأجهشت العمة بالبكاء :

– هاهو ذا المال يامارية قد ابتدأ يجعل منك فتاة منطفئة الآمال قاسية القلب . إنني أعرف نفسيتك الآن

وخرجت العمة لرؤية الميت . وابتدأت عينا مارية الزرقاوان المنطفئتان تلمعان من جديد ؟ إن التفكير فى المال الذى ورثته وفيما يمنحه هذا المال من السلطان ، قد جعل حرارة السعادة تدب فى جسمها الغليظ . غير أنها كانت تود أن تكون أصغر سناً مما هى الآن . وكانت تعرف أيضاً أنها قبيحة المنظر

ودخلت العمة آن قادمة من غرفة النوم وهى تقول : لقد رحل إلى العالم الآخر . إن وجهه جميل وطاهر ، والآن يا مارية أى مجنز نعهد اليه بالقيام بحفلة الجنازة ؟

فأجابت مارية :

– جون جونز . إنه أرخص من توماس إيفانز

– ولكن إيفانز ممن ينتسبون إلى الكنيسة القديمة . إن الذين يحترمون أنفسهم لابد يفضلونه ، وعرباته أيضاً أكثر جمالاً .

فقالت مارية بصوت الآمر :

ولكنني أفضل جون جونز . لقد كنت معه فى المدرسة وكان دائماً معى رقيقاً

فأجابتها العمة آن وقد أخذها الغضب :

– إنه رجل أعزب طماع

وذهبت مارية وأحضرت الأقمشة البيضاء لتغطى بها النوافذ ، وكان ذلك علامة على أن الموت قد عرف طريقه إلى المنزل . ولم تكد تمضي عشر دقائق على ذلك حتى كان سيل الجيران قد ابتدأ يتدفق ليروا الميت . وكانت العمة آن جالسة بجانب جثته . بينما كانت مارية فى الطابق الأرضى تصغى بسخرية إلى كلمات المجاملة والعزاء التى يوجهها اليها الزائرون

قالت إحدى النساء :

– ولكنك سوف تكونين فى سعة من العيش ، فلقد ترك أيضاً وراءه مقادير مخبأة من المال لا بأس بها . لقد كان دائماً متبصراً يا مارية . كان يشح من أجلك

فمطت مارية شفتيها بسخرية وابتسمت ابتسامة باردة وقالت :

– إن كل ما هنا قد عاد إلىّ . ولكنك عديمة الفطنة يامسز هاولز . إنك تفكرين دائماً فى المال

آه ! مثلك أنت . إنه يبدو عليك أنك فتاة غير طبيعية من كل الوجوه يا مارية ، ألا تذرفين دمعة واحدة على أبيك المسكين ؟ ها أنت جالسة ككتلة من الثلج ، لا تعرفين الكلام إلا فى كل ما لا يتفق مع الموقف الذى أنت الآن فيه !

وكان الجيران خارج الغرفة يتكلمون عن عدم تأثر الفتاة وجمود عينيها اللتين لم تعرف الدموع اليهما سبيلا ؛ ولكن مارية كانت جالسة فى هدوء ، مفعمة القلب بالأحتقار والعداوة للجميع ، متمتعة فى أعماق نفسها بأن تكون موضع أحاديث الناس ، هانئة بذلك الدخل الذى سوف تناله عما قريب . وعندئذ شعرت أنها أصبحت مستقلة طليقة ، وفى نفس تلك الليلة آوت إلى سريرها فى فراشها الوثير باستسلام شهوانى . وكأنما الموت الذى أقبل إلى المنزل قد فتح فى أعماق نفسها منبعاً من السرور العجيب

* * *

وفى صباح اليوم التالى أرسلت مارية عمتها (آن) لتبحث عن المجنز ، فخرجت آن وهى تتمتم بعبارات السخط والغضب ، ولكنها كانت تتعزى كلما فكرت فى أنها ستفوز بخمسة شلنات ، لتشترى بها ثوباً أسودَ وقبعة . كانت تقول لنفسها وهى تبكى :

– وإن دفنه بيدى جون جونز سيقلقه فى مقره الأخير . فعرباته القديمة فرشها حقير للغاية . إنى أخجل منه

وعاد المجنز معها واستصحبته الى الدور الأعلى لكي يقيس جثة الميت ، ثم نزل الى الصالون حيث انتظر مارية

وجاءت مارية ، فبادرها بقوله :

ــ ما أكثر وقار وجهه يا مس مورجنز

فأجابته مارية فى الحال بنظرة خبيثة قائلة :

ــ إن وجهك أنت سيكون أكثر هدوءاً ووقاراً حين يتوفاك الله !

فسألها وهو يهز رأسه الصغير :

ــ وكيف ذلك ؟ لقد عشت حتى الآن عاقلاً رزيناً

فقالت بخبث وهى تبحث له عن كرسى :

ــ لقد كنت فى المدرسة صبياً ماجناً خداعاً ، اجلس الآن ودعنا نتكلم فى الوضوع

كان جون جونز شاباً نشيطاً عصبياً أشبه بعصفور . ألقى جون جونز قبعته بجانبه ، وفرك يديه ثم وضعهما على ركبتيه النحيلتين كركبتى مراهق ، وكان يحاول عبثاً أن يتظاهر بالبرود الحزين الذى يتناسب مع مهنته ، فقد كان خفيف الحركة ، ويبدو كأنما يثقله العمل الكثير ، وكانت لحيته كأنها محلوقة متدبرهة وجيزة ، كما أنه لم يكن ناجحاً فى عمله كمنافسه

قال جون جونز ، وقد بدا على وجهه نوع من الاهتمام :

ــ أى نوع من التوابيت تفضلين ؟

وعند ما نظرت اليه مارية نظرة باسمة احمرت وجنتاه وتولاه الاضطراب . سألته قائلة :

ــ كم الثمن الذى تريده ؟

كانت مارية جالسة أمامه وجهاً لوجه تناقش الأثمان بمكر ودهاء عجيبين ، وقد مطت بشفتيها الغليظتين ، وبدا عليها التفكير والانتباه ، مما جعله يعجب بها برغم سخطه . وبعد حساب طويل ، قال :

ــ إن كل شىء سوف لايتكلف أكثر من عشرين جنيهاً ،

فهزت مارية رأسها قائلة :

ــ أن توماس إيفانز يأخذ أقل من هذا

فقفزجون جونز من على كرسيه ، وقد تملكه الغضب وقال :

ــ إنك يهودية الى آخر حد يا مارية مورجنز ، إنه لايليق أن تكونى شحيحة هكذا فيما يتعلق بالمآتم

فوقفت مارية أيضاً ، وقد احمرت وجنتاها من الغضب وصرخت :

ــ إنك تريد أن تسرق الأيتام الفقراء ، تريد أن تربح من فتاة لم يعد لها أب !

فضحك جون جونز ساخراً :

ــ أيتام فقراء ! إننى متأكد أن والدك قد ترك مالاً وفيراً ، ولكن ابنته تريد أن يدفن كما يدفن رجل معدم

وفرقع أصابعه بعصبية ، ونظرت مارية اليه طويلاً ، وقد انخفض جفناها وعاد اليها خبثها من جديد ، ثم قالت :

ــ إننى أحب أن أراك غاضباً مهتاجاً ، إنك بهذا تكون أكثر رجولة ، ولكنك الآن أكثر غضباً مما يجب أن يكون عليه (حانوتى)

كان جون جونز يسائل نفسه : كيف يترك هذا الرجل الموقر وراءه مثل هذه الفتاة الوقحة ذات اللسان البذىء ! على أنه تذكر تجارته التى كانت آخذة فى التدهور ، فقال بهدوء :

دعينا من هذا يا مس مورجنز ، كونى أكثر عدلاً ، سوف أنظم لك جنازة فخمة بتسعة عشر جنيهاً ونصف جنيه

وطلبت مارية من عمتها أن تحضر الشاى لجون جونز ، وأخرجت هى خير ما عندها من الحلوى والفاكهة وأعطته منها كمية كبيرة

***

وفى يوم الدفن كان المطر يسقط مدراراً ، والسماء مكفهرة ، والجو ردیئاً . وكانت مارية حزينة لأنها أنفقت كثيرا من النقود فى شراء فستان أسود جميل وقبعة ، كانت تقول لنفسها بعصبية متنقلة بين الحوانيت :

ــ سوف يعرفون أنه حتى مس مورجنز الفقيرة الملبس تستطيع أن تبرهن على أنها سليمة الذوق

على أن المطر ضايقها كثيرا ، فقالت لعمتها (آن) وهى ساخطة فى صباح يوم الدفن :

ــ سأضطر للذهاب لشراء معطف للمطر وشمسية جديدة ، إننى دائماً سيئة الحظ ، فسوف يكون هذا النهار رديئاً

كان المطر يسقط والرياح تصفر بقوة شديدة بالقرب من

المقبرة ، وكانت مارية واقفة بجانب القبر متكئة بجسمها الضخم على ذراع ابن عمتها تفكر فى شمسيتها الحريرية الجديدة وتنعم النظر فى الزهور التى تداعبها الرياح ، وتفكر بحسرة مريرة فى شبابها المنطفىء . آه ! ولكن كم من الأوقات الطويلة السعيدة ستتمتع بها حين ينتهى كل ذلك ! لا ، إنها سوف لا تبيع منزلها وتعيش بعيداً ، فستكون مجهولة لا يعرفها أحد إذا ذهبت الى مكان آخر ، سوف تشترى كمية من الفساتين وتنشر (الموضة) فى الحى الذى تعيش فيه ، وتدهش صديقاتها . وسرعان مارأت نفسها تنزل الى الدور الأرضى من الكنيسة فى روعة يحسدها عليها الجميع . ولكن عند ما أخذ الجميع يرتلون الترتيلة المحزنة الأخيرة فكرت من جديد فى ألوان السعادة التى حرمت منها ؛ وأخيراً بكت ، نخفف بكاؤها كثيرا مما يثقل قلب عمتها (آن)

وعند ما أخذت مكانها فى العربة أقبل (الحانوتى) وفى يده غطاء غطى به ركبتيها وعلى وجهه أمارات التأثر ، ثم قال :

ـ إن داخل العربة بارد . إنك قادرة على كتم عواطفك بشجاعة يا عزيزتى مس مورجنز

فأجابته بشموخ :

ـ أشكرك يا چونچونز ، أظن أنه لابد لك من شلن من أجل هذا الغطاء !

وعندما دخل الجميع العربة اتجهت اليها عمتها (آن) وقد بدا عليها الغضب ، وقالت :

ـ إنك تتصرفين كما لو كنت قطعة من الخشب ، لقد أفسدت علىّ عملية الدفن ، وكنت خجلة منك الى أقصى حد

فقال ابن عمة الفتاة فى صوت متأثر :

ـ يا عزيزتى ، لقد بكت عند ما كنا نرتل الترتيلة الأخيرة ،

فأجابت العمة :

ـ آه ، عندما كان كل شىء قد انتهى تقريباً . سوف يتكلم عنها كل من كانوا بالكنيسة

فقالت مارية بكبرياء :

إن كل ما يقولونه لا يهمنى ، وأنت يا عمتى (آن) عجوز مرائية ، إننى أعرفك جيداً

ثم قالت ساخرة :

ـ إن كل مافى المسألة أنك تحسدينني من أجل ثروتى لاغير !

وعند ما وصلوا إلى المنزل صعدت مارية إلى الطابق الأعلى لكى تخلع حذاءها الضيق الذى جرح أصابع قدميها . وكانت جموع الناس قد اجتمعت منتظرة الطعام الذى يعد عادة بعد الجنازة . وكانوا يعلقون بأصوات خافتة من الجوع على كل ما حدث فى الجنازة . أما مارية فقد فتحت صندوقاً مغلقاً بمفتاح ، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة . وأخرجت منه علبة المسحوق الأبيض التى اشترتها بعد موت والدها ، ودهنت أنفها اللامع وخديها النحاسيين ، وهى فى غبطة وسرور من هذا الأثم الجديد . وبعد ذلك لبست قرطها بهدوء . ثم اتجهت نحو السلم فرحة منتفخة كأنها ملكة مهيأة من جديد للنزول وعليها أمارات الأبهة والجلال . وفى أثناء نزولها سمعت أصوات بعض النسوة اللائى كن يتكلمن عند المدخل بصوت منخفض ، فوقفت تنصت إليهن ، فسمعتهن يذكرن اسمها . قالت إحداهن :

ـ لقد كانت دائماً سخيفة غبية . ولكنها اليوم كانت حقاً وضيعة النفسية لا يحمل قلبها ذرة من النبل . لقد كانت معجبة بملابسها السخيفة كأنها فى حفلة زواج

وقالت الأخرى :

ـ ألم تكن تفكر أنه كان يجب عليها أن تبكى على الأقل اعترافاً بالجميل من أجل ذلك المال الكثير الذى تركه لها

ـ لقد كانت كشخصية مضحكة فى مأساة محزنة . ما هذه القبعة التى كانت تلبسها ! أى مرض فى الذوق ذلك الذى جعلها تلبس هذه القبعة فى جنازة أبيها !

ونزلت مارية بهدوء . وعند ما أحست النسوة بقدومها ابتدأن يتكلمن بأسى عن ساعة الدفن ، ونظرن إليها بعيون كلها شفقة ورثاء . فنظرت إليهن مارية ، وقد كشرت عن أنيابها وصاحت :

ـ أخرجن من منزلى يا ذوات الألسنة البذيئة . أخرجن من هنا !

فجرى النسوة من وجهها الغاضب . ولكن إحداهن صاحت لدى الباب :

ـ امسحى هذا المسحوق الأبيض الذى على وجهك أيتها الفتاة المفتونة !

***

وبعد أسبوع ذهب چون چونز إلى المنزل ومعه قائمة حسابه

فأدخلته مارية إلى الصالون ، ووضعت على الطاولة تسع عشرة ورقة من ذات الجنيه ، فعد (الحانوتى) النقود بعناية . ثم التفت اليها وقد احمرت وجنتاه . ثم قال رافعاً صوته :

ـ أرجـو يا مس مورجنز أن تعطينى النصف جنيه الباقى .

فأجابته :

ـ إذن قدم لى حساباً عن هذا المبلغ الضخم . لقـد كانت الجنازة متواضعة

فصاح وهو يهز قبضته بانفعال شديد :

ـ سوف أذكر لك ذلك أمام المحكمة . نعم سأقاضيك مطالباً بمبلغى أيتها المرابية الشحيحة !

كانت مارية متشحة برداء من القطيفة السوداء . لابسة عقدها وقرطها . معلقة ساعتها فى ردائها الضيق الملتصق بجسمها المفصل على آخر طراز . قامت مارية من على كرسيها وقالت بطريقتها الانجليزية الرشيقة :

ـ لست ممن يتناقشن مع الحانوتى من أجل نصف جنيه . لقد كنتُ أظن أنك رجل مهذب ولـكن يظهر أننى كنت مخدوعة

ظل جون جونز صامتاً وكأنه تذكر فجأة شيئاً . فنظر اليها بعينيه اللامعتين اللتين تشبهان عينى قرد ، وقد بدا عليـه الألم والحسرة ، ولـكن مارية خرجت من الغرفة ببرود وعادت وفى يدها كيس من التيل ، وأخرجت منـه حزمة منتفخة من أوراق البنكنوت . فنظر جون جونز الى النقود . وقال بصوت تبلله الدموع

ـ اغفرى لى ثورتى يا مس مورجنز . لقـد نسيت فى فترة غضبى الخسارة المؤلمة التى انتابتـك . يا إلـهى ! كم ستشعرين بالوحدة ، إن عمتك ليست الرفيق اللازم لفتاة شابة . هلا وضعت بعد مشروعات تقومين بها فى المستقبل ؟

لقد كان قلبه الصـغير الحساس يخفق حقيقة بحرارة رحمة بمارية التى لا أنيس لها . وابتسمت مارية ابتسامة خفيفة ، وهى تعبث بيـدها فى أوراق البنكنوت ، بينما جون جونز ينظر اليها وعليه أمارات التأثر

أجابت مارية :

ـ إننى لست متعجلة . فسوف أعيش عالي فى بسطة من العيش

فقال جون جونز :

ـ حقاً . ويمكنك أن تحصلى على ثمن جيد لهذا المنزل وللأربعة منازل الأخرى التى تقع فى طريق الناجم . إنهم خالون من حق الأرتفاق . أليس كذلك ؟

فقالت مارية ضاحكة

ـ إنك تريد أن تعرف كل شىء !

وخرجت ثانيـــة حاملة معها الـكيس ، ثم عادت ومعها زجاجة من النبيذ الفاخر وطبقاً من البسكويت . صرخت مارية بنشوة وافتخار رافعة الزجاجة إلى أعلى :

ـ إنها الأولى فى هذا المنزل

فقال جون جونز ضاحكاً أيضاً

ـ لقد كان والدك مدمناً على شرب الماء !

وبينما كانا يشربان كانت مارية تنظر من النافذة بنشوة كأنها فى حلم . ولـكنها لاحظت أن الحانوتى يرمقها بنظرات عصبية

قالت مارية :

ـ لا ، إنى لم أضع بعد مشروعات . كنت أريد أن أنتقل من هذا المنزل . ولـكن فتاة غير متزوجة لابد أن ستشعر بالوحدة المضنية فى مكان غريب . أما إذا وجدت زوجاً . . . . ورفعت عينيها الذابلتين نحوه . وكان هو من ناحيته ينظر إليها بتحديق شديد

لقد كان ذلك أكثر مما كان يأمل ، فشرب قدحه سريعاً ، ثم رفع كوبته بيد مرتعشة وانحنى على ركبتيه أمامها ، وأمسك بيدها وهو يتكلم بعبارات سريعة مضطربة قائلاً :

ـ خذى يا عزيزتى مس مورجـنز . إننى أنا أيضاً أعزب وحيد . لقد أحببتك منذ أن رأيتك أثنـاء دفن والدك هادئة ووحيدة . حقاً إنني أحبك . إنني أشعر فى أعماق نفسى بشىء غريب نحوك

ـ فأخذت مارية تضحك ضحكاً طويلاً لا ينقطع ثم قالت :

ـ حسناً ! حسناً ! إنها مصادفة عجيبة . لقد كنت أعتقد ياجون جونز أنك بخيل لدرجة أنك لا تستطيع أن تحب . هل تحبنى من أجل ذاتى ؟

فقال جون جونز بحزن :

ـ إنك قاسية خبيثة

فأجابته فى الحال بحدة :

ـ أوه ! إننى لا أشعر بالحب نحو أى رجل ما . إننى أريد أن أتزوجك ليكون لى اعتبار فى أعين الناس . والآن كم يكون هذا مفاجأة عجيبة بالنسبة لأولئك النسوة جميعاً !

على كامل

من هنا ومن هناك

ضوء جديد على قضية دريفوس

نعرف ما لقضية دريفوس الشهيرة من أهمية وآثار بالغة في تاريخ فرنسا المعاصر السياسي والاجتماعي. وقد مضى اليوم زهاء ثلاثين عاماً على خاتمة تلك القضية الشهيرة التي حكم فيها على الضابط البريء الفريد دريفوس بالنفي والتجريد، واستمرت أدوارها بين إعادة نظر ونقض وأحكام مختلفة مدى عشرة أعوام، تأثرت خلالها الحياة الفرنسية العامة أيما تأثير؛ ثم حكم نهائياً بتبرئة الضابط المظلوم ورد اليه حقوقه واعتباره. ومع ذلك لم تقل بعد آخر كلمة في هذه القضية الشهيرة. فقد صدر أخيراً كتاب بالفرنسية بقلم هنري ما زيل عنوانه «تاريخ قضية دريفوس ونفسيتها» يذهب فيه المؤلف إلى رأي جديد يوفق فيه بين رأي القائلين ببراءة دريفوس، ورأي خصومهم، وأنه لم يكن في المسألة كلها خائن ولا متهم؛ وأنه إذا كان ثمة متهم، فهو متهم من نوع خاص لأنه لم يكن سوى الكولونل شفارتز كوبن الملحق الحربي للسفارة الألمانية، فهو الذي دبر الدسيسة كلها، وعمل على تغرير أركان الحرب وخديعته

ذلك أن الكولونل لاحظ منذ مدة أن مدام بستيان خادمة السفارة تحمل دائماً قصاصات الورق التي يلقيها في سلة المهملات إلى قلم المخابرات الفرنسي؛ ففكر عندئذ في أن يخترع حكاية «البردرو» وهي الوثيقة التي كانت أصل القضية كلها، فكتب عندئذ هذه الوثيقة بنفسه، مقلداً فيها خط الضابط استرهازي الذي كان لديه نماذج من خطه لأنه كان يكاتبه؛ ولما كتب الوثيقة مزقها بعد ذلك، وألقاها في سلة المهملات؛ فأخذت مدام بستيان القصاصات كالمعتاد إلى قلم المخابرات

ويؤيد مسيو مازيل رأيه بأدلة منها أن «البردرو» كان مكتوباً بفرنسية ركيكة لا يمكن أن تصدر من ضابط في أركان الحرب مثل دريفوس، ولا يمكن أيضاً أن تكون من كتابة استرهازي لأنه كان يكتب خطاباته دائماً في أسلوب مختار؛ وكل الدلائل تدل على أن «البردرو» إنما كتبه رجل بالفرنسية يفكر بلغة أخرى

وقد أثارت نظرية مسيو مازيل اهتماماً كبيراً في دوائر التاريخ والقضاء؛ ونالت تأييداً كبيراً

آثار ملكة سبأ

ما زالت أساطير العصر القديم التي تجري مجرى التواريخ تثير طلعة الباحثين والمكتشفين؛ فهم يحاولون في فلسطين مثلاً أن يعثروا بآثار سليمان وداود؛ ويحاولون أن يكتشفوا بقايا «ارم ذات العماد» في بلاد العرب. وهنالك من يحاول أن يكتشف آثار ملكة سبأ في بلاد الحبشة، وذلك هو الكونت بيرون دي بورك العلامة الأثري البولوني، وهو ممن يعشقون الأساطير القديمة ويهيمون بتحقيقها، وقد اكتشف من قبل في تلك المجاهل قبر «تيني هنان» الذي كان يعتبر من قبل خرافة، ومنذ أشهر عاد إلى الحبشة من طريق السودان المصري، ليحاول البحث عن مناجم سليمان الذهبية، وآثار ملكة سبأ الشهيرة؛ وعكف على البحث مدى حين في هضاب بلاد يامو؛ ولكنه لم يظفر بآثار حقيقية تكشف عن حقيقة تلك الأساطير الشهيرة؛ بيد أنه استطاع أن يجمع كثيراً من المعلومات الأثرية الهامة عن تلك المنطقة؛ وربما عاد في فرصة قريبة ليستأنف مباحثه

والواقع أن من الصعب أن نقتنع بصحة أمثال هذه الأساطير من الوجهة التاريخية. وقد يكون لبعضها أساس تاريخي، ولكن الأسطورة تحيط به وتجرده من حقيقته الأولى لتخرجه لنا في ثوب خرافي محض. ومن هذا القبيل أسطورة قبر «الأسكندر» المقدوني، وكونه قد دفن بالأسكندرية، فقد اهتم السير هوارد كارتر مكتشف قبر توت عنخ آمون بهذه الزاوية. وأخذ بالفعل يبحث عن تحقيقها تمهيداً لاكتشاف قبر الأسكندر. على أن لهذه الأسطورة مهاداً أخرى، إذ يروى أن الأسكندر دفن بالشام، أو ببلاد الفرس، وقد ذهبت جهود العلماء لتحقيقها سدى منذ نصف قرن

التنافس بين الفاشستية والهتلرية على استعباد الشعوب

كثر الجدل أخيراً بين الصحف الألمانية والصحف الايطالية ، وانفردت الصحف الألمانية الى جانب الصحف الروسية بالحملة على مشاريع إيطاليا وجهودها الاستعمارية ، ولاسيما في بلاد الشرق الأدنى . وتنتهز الصحف الألمانية هذه المناسبة للحملة على « الفاشستية » والمقارنة بينها وبين « الاشتراكية الوطنية » (الهتلرية) الألمانية ؛ وقد نشرت مجلة « فولك أوند رخت » (الشعب والحق) البرلينية أخيراً فصلاً تندد فيه بخطط إيطاليا وبالفاشستية الايطالية ، وتقول إن سلام شعوب الشرق الأدنى لا تحققه الفاشستية التي هي في الواقع عنوان عصر قد ختم ؛ أما « الاشتراكية الوطنية » فهي بالعكس نظام جديد ، قد خلق أسلوباً جديداً للتفكير يعارض كل ما تذهب اليه النظرية الغربية في شأن الدولة والرأسمالية ، ولا سلام للشرق إلا باعتناق مبادىء الاشتراكية الوطنية . وقد ردت جريدة « جورنالى ديتاليا » الايطالية على هذه الحملة ، فقالت إنه يراد أن يخلق تعارض بين الفاشستية والاشتراكية الوطنية ، وأن يتخذ من هذا التعارض أساساً لمنافسة سياسية تزمع ألمانيا أن تقوم بها ضد إيطاليا في الشرق الأدنى ، وتسلم الصحيفة الايطالية بوجود فروق جوهرية بين الفاشستية والاشتراكية الوطنية ، ولكنها تنوه بما تقوم عليه النظرية الألمانية من التفاضل بين الأجناس ، وأنها تطالب بوحدة الأمم من الوجهة الجنسية . والواقع أن أمم الشرق الأدنى تتكون اليوم من مزيج من الأجناس المختلفة ، وتتكون كل منها حول الجنس الغالب ؛ فاذا فكرت في ألا تطبق المبادىء الهتلرية فعليها أن تمزق نفسها مختارة ، وأن تتنازل عن أجزاء من أراضيها تعمرها الأجناس الدخيلة أو المنحطة

وهكذا يتم هذا الجدل عن غايته ، فأنصار الاشتراكية الوطنية يزعمون أنهم أحق باستعمار الأمم وبسط نفوذهم عليها ؛ ويعارضهم أنصار الفاشستية في هذه الدعوى ؛ وأمم الشرق تستهدف في الحالين الى مطامع الاستعمار ودسائسه ؛ ومن المفيد أحياناً أن تتبع الأمم الشرقية مثل هذا الجدل لتقف على ما تبطنه الفاشستية الايطالية أو الهتلرية أو غيرهما من الدعوات والمبادىء الخلابة نحوها من ضروب الغدر والعدوان

المسرح والسينما

كتب كاتب في جريدة « الطان » نبذة شائقة عن المسرح والسينما وما يضطرم بينهما من منافسة ينوء بها المسرح . ومنذ حين يثور الجدل حول هذا الموضوع ، وتتجه معظم الآراء الى أن تقدم الفن السينمائي كان ضربة قاضية للمسرح ، وأن المسرح يتدهور بل ينحدر الى الفناء بسرعة ، وأن السينما قد انتزعت منه معظم رواده ومحبيه . ويقول لنا كاتب « الطان » إن هذه الجلسات السينمائية الصغيرة ، ومناظرها الشعرية الغريبة ، قد خلبت حقاً ألباب الناس ، غير أنه يذهب الى رأى جديد فيما يتعلق بتقدم الفن السينمائي ؛ فهو يرى أن السينما ليس لها من الوجهة الفنية عدو ألد من نفسه ، وأخطر من نجاحه ، فهو من من جهة عبد القوة المالية يطيعها طاعة عمياء ، ومن جهة أخرى عبد المخرجين (مخرجي المناظر) . ولما كانت الأشرطة السينمائية لغة عالمية ، فان مخرجيها لا يفكرون إلا في إخراج أشرطة ومناظر تجتذب أعظم مجموعة من الرواد ، ويمكن أن تعرض في نفس الوقت في يوكوهاما وبرلين وباريس ولندن ونيويورك وشنغهاى ، والنجاح يغدق المال . على أن هذا النجاح نفسه يحمل المخرجين على أن يتحروا دائماً التأثير في العدد ، ونجاح الكمية لا نجاح النوع ، ومن ثم كانت جمهرة « الأفلام » المتماثلة في المناظر والأذواق العامة ، وهي مناظر أصبحت معروفة يتوقعها ويتنبأ بها الجمهور بلا مشقة ، وهذا الاتجاه المادى المحض الذى يتخذه الفن السينمائي يثير اليوم بين الكثيرين ضجراً وخيبة أمل ، وهؤلاء يرون أن الفلم لم يعد يرضى أذواقهم وأمانيهم الفنية ، وأن المسرح هو الكفيل بتحقيق هذه الأذواق والأماني

ولهذا يتجه الكثيرون اليوم صوب المسرح ، ويعود المسرح فيحرز بعض النجاح والانتعاش ، ولكنه انتعاش بطىء يحتاج الى وقت غير قصير ، غير أنها على أى حال ظاهرة تدعو الى التفاؤل . وفي وسع أنصار المسرح والفن المسرحي أن ينتهزوا هذه الفرصة فيضاعفوا جهودهم لتجديد المسرح من الناحية الفنية ؛ ويستطيع الكاتب المسرحي أن يؤدى في ذلك التجديد دوراً خطيراً ، إذا استطاع أن يزود المسرح بطائفة من الآراء والمناظر المبتكرة

البريد الأدبي

فى نادى القلم العراقى

عقد نادى القلم فى بغداد جلسة فى دار أحد الأعضاء ، وقد ألقى فى هذا الاجتماع رئيس النادى الأستاذ رضا الشبيبى محاضرة عن (المجريطى : فلسفته ومكتشفاته) وهى نتيجة دراسة كتاب من أهم كتب المجريطى ، وهو من أنفس الآثار العربية النادرة اسمه « غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم » ، وبعد أن ألم المحاضر بتاريخ المجريطى قائلاً فى هذا الباب إنه صاحب رسائل (إخوان الصفا) الأندلسية التى ألفها على نمط (رسائل اخوان الصفا) العراقية فبذر فيها بذر التفكير العلمى فى أذهان الأندلسيين ، فلم تلبث الفلسفة أن ازدهرت فى العصور التى تلى عصره فى الأندلس ، وجاء منها أمثال ابن رشد وابن الصائغ وابن طفيل وبنى زهر وغيرهم من أعيان الفلاسفة والمفكرين . وذكر أيضا أن المجريطى عالج عدة موضوعات تاريخية وفلسفية ، وهو مؤلف كتاب (تاريخ فلاسفة العرب) ترجم فيه الكندى وغيره ، وقد استظرف الكندى رسالة موضوعها (كمية بقاء دولة العرب) (؟)

وبعد ذلك شرع المحاضر يسرد نتيجة دراسته لهذا الأثر من آثار المجريطى وقال : يستفيد من هذا الكتاب ، أى كتاب غاية الحكيم ، من يعنى بدراسة تاريخ الحضارة البشرية فى أقدم عصورها ، ومستنبطات الأمم المعريقة فى القدم من أنباط وأقباط وسريان وهنود وغيرهم ، ومكتشفاتهم وجهودهم فى تقدم العمران ؛ وبعد أن أورد هذا ونحوه قال : لا أستبعد أنا والحالة هذه أن يكون لآراء المجريطى ومكتشفاته أثر فى عمران الأندلس وازدهارها خصوصاً فيما يتصل بالهندسة والكيمياء وعلم المواليد الطبيعية ، وإن سكت المؤرخون عن ذلك كله . واستنتج من مواضع أخرى من الكتاب أن المجريطى فيلسوف يميل إلى الدراسة الشاملة ، ولكنه يرجح العلوم الواقعية التى يؤيدها الحس والتجربة ، ولا يذعن إلا لأحكام العدد والأرقام فى تفكيره . وأنه مفكر من طراز أعظم مفكرى العصر فى الرياضيات والطبيعيات . وينحو من بعض الوجوه منحى الرياضيين الأوربيين فى محاولة إخضاع قوى الطبيعة واستخدامها لرفاه الأنسان ورفع مستواه فى سلم الحضارة ، هذا ونحوه

(البلاد البغدادية)

للحق والتاريخ

قرأت فى الرسالة السابعة والثمانين نبأ « عيد الربيع القومى فى سورية » وأن (فريقاً كبيراً من طلبة الجامعة السورية والمدرسة التجارية والمدارس الثانوية العالية عقدوا اجتماعاً بحثوا فيه مشروع إقامة عيد قومى فى الربيع وأطلقوا عليه اسم عيد الربيع القومى) . فعجبت من نفسى ! كيف أكون فى صلب دمشق ، وأكون أشد الناس صلة بمثل هذه المشروعات ، ثم لا أسمع بهذا الخبر إلا من مصر . . . وإنى لأصفح « الجزيرة » كل يوم يتفضل منشئها الفاضل فيبعث بها إلىّ . ولكن من طبعى أنى لا آكل الجوز بقشره . . . وأنى أتخير اللباب من كل شئ ، ولذلك لم أقرأ هذا الخبر فى الجزيرة » . أما وقد نشر فى «الرسالة» والرسالة ديوان العرب ، وكتاب الشرق ، فلم يبق من قراءته والتعليق عليه بدّ ، كيلا يعلق منه شىء فى نفوس القراء ، ويبقى مخزاة خالدة لدمشق

والحق أن شيئاً مما قالوا لم يكن ، وأن هذا الاجتماع لم يعقد إلا فى رأس كاتب هذا الخبر ، وأن لطلبة الجامعة السورية لجنة تنطق بلسانهم ، وتنوب عنهم ، ولم يدع واحد من أفرادها إلى اجتماع ، ولم تدع هى أحداً إلى اجتماع لمثل هذا . . . ولها مشاغل وأعمال هى خير لهذه الأمة وأجدى عليها من تأليف مواكب (تمثل أزاهير دمشق) . . . ورئيسها الشاب العالم الفاضل الشيخ معروف الدوالى رجل مسلم يكره أن يدخل باخوانه « جُحر الضب » !

(أما المدرسة التجارية « العليا » (؟) التي يقوم أحد طلابها برحلة إلى شمال سورية من أجل هذا المشروع !) . فجاع أمرها أنها دار في طريق الصالحية استأجرها قنصل إيطاليا منذ شهور ، وكتب على بابها « المدرسة التجارية » واشترى لها مدرساً أديباً كبيراً معروفاً . . . وذهب هذا وذاك ومن والاهما ، يخطبون في الناس بلغة « الذهب الايطالي . . . وفي الناس أناس عقولهم في جيوبهم ، وبطون أكفهم ، فاستجابوا لهم ، وبعثوا بأبنائهم إلى المدرسة ، فكان فيها أربعون طالباً ، من أصل أربعمائة ألف ، هم سكان دمشق وضواحيها !

وأما المدارس الثانوية في دمشق ، فان كبراها المدرسة التجهيزية ، وأنا أعلم علم اليقين أنه ليس بين الألف من طلابها ، طالب واحد يعلم من أمر هذا المشروع أكثر مما يعلم أي قارئ من قراء الرسالة

ودمشق أعقل بحمد الله من أن تسفل في التقليد إلى هذه الدركة ؛ وإن دمشق لتعلم — إذا لم يكن من التقليد بدّ — أن في باريس شيئاً غير مواكب الزهر ، هو الجيش الذي تستعرض مواكبه يوم ١٤ يوليه . وأن فيها غير الشباب الذين يحملون الأزهار شباباً يحملون البنادق والسيوف . . .

وحسب دمشق عاراً ذلك المؤتمر النسائي ! أفلا تمشي المصيبة إلا على ساقين ؟

دمشق — علي الطنطاوي

مأدبة تكريمية

كان مطعم (سان جمس) في مساء الثلاثاء الماضي مجمعاً حافلاً بصدور العلماء وأعلام الأدب وأئمة القانون وأعيان الصحافة ؛ اجتمعوا لتكريم صديقنا الأستاذ أحمد أمين رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وصاحب فجر الاسلام وضحى الاسلام ، وأستاذ الأدب العربي بكلية الآداب . وكانت هذه المأدبة منذ طويل حاجة ملحة في نفوس أصدقائه وزملائه الذين راقبوا عن كثب جهاده الدائب المضني في خدمة العلم والتأليف عشرين سنة ، فلما تهيأت الفرصة بانقضاء عشرين عاماً على رياسته للجنة التأليف والترجمة والنشر ، وإخراجه الجزء الثاني من ضحى الاسلام تلاقت رغبات الأعضاء والأصدقاء على إقامة هذه الحفلة ، فأقيمت برياسة الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد بك زعيم النهضة الفكرية الحديثة ، وساهم فيها أولياء الثقافة من رجالات وزارة المعارف والجامعة المصرية ومجمع اللغة العربية الملكي ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، فجلس المحتفلون عشرة عشرة الى الموائد الفخمة يتبادلون شهي الأحاديث في وقار العلماء واحتشام السادة ، حتى إذا فرغوا من الطعام نهض معالي رئيس المأدبة فافتتح الكلام بالثناء على جهود الدكتور طه حسين في تعرف الأدب العربي على ضوء المناهج العلمية ، وذكر كيف تعاون (الثالوث الأدبي) طه حسين وأحمد أمين والعبادي على خدمة الثقافة العربية بتأليف فجر الاسلام وضحاه ، ثم لمح بسبق الأستاذ صديقيه إلى أداء نصيبه ، ونوه بأثر كتبه في الحياة الأدبية الحديثة ، وتساءل لماذا لا يتوج مجمع اللغة العربية الملكي هذه الكتب القيمة أسوة بالمجامع الأخرى . ثم قام من بعده صاحب الفضيلة الأستاذ المراغي فذكر في منطق عذب وبيان هادئ ، أن الدراسة في الأزهر تروض العقل على مصابرة البحث ومتابعة الدرس ورغبة الاستقصاء ، فاذا صادفت عقلاً خصيباً وخلقاً قويماً وطبعاً سليماً أنتجت أمثال (الشيخ أحمد أمين) ؛ ثم تكلم الدكتور أحمد زكي وكيل كلية العلوم فبين فضل الأستاذ على لجنة التأليف والترجمة والنشر بقوة ارادته ودقة ادارته وكرم أخلاقه ، وجودة تأليفه برياسته لها عشرين سنة متوالية . ثم تلاه الدكتور عبد الوهاب عزام فلخص الصفات الثلاث التي يمتاز بها الأستاذ أحمد أمين وهي حب النظام والدأب والتثبت وجماعها صفة واحدة هي حب الحق

ثم قام على أثره الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني فأفاض في وصف الجاذبية الروحية التي يؤثر بها الأستاذ أحمد أمين في مناظريه ومعارضيه فيبلغ بسحرها من نفوسهم ما يريد ؛ ثم تكلم الأستاذ محمد كرد علي عن البلاد العربية ، والأستاذ نللينو عن المستشرقين فأجاد التعبير عما تشعر به النفوس الفاضلة من إجلال العلم وأهله . ثم كان خاتمة المتكلمين الدكتور طه حسين فأشاد بفضل الأستاذ نللينو على دراسة الأدب العربي في مصر ، ثم وفى صديقه الأستاذ الأمين ما هو أهله من التقدير والحمد ؛ ثم نهض الأستاذ المكرم فشكر الداعين والمدعوين في عبارة أخاذة الأسلوب شديدة الروعة

والرسالة ترجو أن تؤدي واجبها لصديقها الأستاذ في عدد مقبل

الكتب

ترجمة نفسية تحليلية

هو ذا تاريخ انسان ...!

للأستاذ خليل هنداوى

وقلت للاستاذ النعيمى عقب وصوله الى لبنان : هل أعددت وراءك غربالا آخر ؟ فأجاب : ذاك غربال انطوى ، فتحت به طريقى الى النور ، والآن أرانى سائراً الى المحجة التى فرضتها على الحياة ، أو فرضتها على الحياة . . . .
فأعطانا « المراحل » وكتاب « جبران خليل جبران » (خ . ه)

— ١ —

وجه جبران خليل جبران

وما إن صدر كتاب « جبران خليل جبران » حتى تناولته الأكف ، وتهافت عليه الناس . وما إن تلاه الناس حتى ضجوا به ، وتفرقوا فى شأنه شيعاً ، شأن العظيم لايعرف أحداً معه معتدلاً ! فمن ناقم على النعيمى لأنه فضح أسرار صديق كان يجب عليه أن يحفظ حرمته بعد الموت ، ومن محبذ لأن الأدب لا يعرف تستراً ! والحقيقة لاتعرف مواربة ؛ وهكذا ذهب الناس فى شأن الكتاب مذاهب مختلفة ، وللناس مذاهبهم

أراد البعض أن يدرسه جملة ، فخرج من درسه بالارضاء ، وشاء البعض أن يذهب فى نقده ما يفرضه الناقدون على غيرهم من أساليب جافة ، ومقاييس محدودة ؛ ومتى كان الأدب – ابن الحياة – يقبل الحدود والقيود ؟

الكتاب عظيم بنفسه ، متفرد بروحه وبطريقته وبنقده ، صارم ما شاءت الصرامة ، وعادل ما شاء العدل . ولن نتبين هذه النقطة التى تمازج فيها العدل والصرامة فى مواطن كثيرة ، إلا إذا اطلعنا على المقياس الذى أعلن عنـــه نعيمة فى مطلع الكتاب ، وهو مقياسه الخاص فى الأدب والفن والحياة ، فاذا فهمنا هذا المقياس فهمنا الكتاب ، وإذا أعرضنا عن هذا المقياس ضاع عنا جوهر الكتاب ، والغاية التى أُلف من أجلها

لا يريد نعيمة أن يعرض فى كتابه تاريخاً له تفاصيله وله آفاقه ، والبشرية – فى اعتقاده – لم تكتب حتى الآن تاريخ إنسان ولا تاريخ شىء على الاطلاق ، وإنما أراد أن يجرى فى درسه لحياة جبران مع عقيدته الشائعة فى نفسه « إن الفن مهما تسامى فى

الأوزاعى

(بقية المنشور على صفحة ٤٢٠)

وفاته : كانت وفاة هذا الفقيه الكبير فى سنة ١٥٧ ه ، وقد ذكرها أبو الفداء فى حوادث تلك الســـنة ، وتوفى وهو فى الحمام فى بيروت ، وقبره على ما ذكره أبو الفدا فى قرية على باب بيروت يقال لها خنتوس ، وأهل القرية لا يعرفونه ، بل يقولون هاهنا رجل صالح

والسبب فى وفاته على ما جاء فى ابن خلكان ، أنه دخل الحمام ، واتفق أن صاحب الحمام كان مشغولاً فأقفل عليـه الباب ومضى ، فلما عاد فتح الباب فوجده قد فارق الحياة . رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان إمام أهل الشام غير مدافع

هذا وإن ما ذهبت إليه فى هذه الكلمة ليس إلا محاولة بسيطة أرجو إن لم أوفق فى نتائجها ، أن أكون قد وقفت فى الطريق الذى سلكته . فالبحث فى اعتقادى ناقصٌ مبتسر ، لأنى لم أطلع على كل ما كتب عن الأوزاعى فقد تكون هناك كتب كثيرة ، لم تنشر أو لم أوفق الى العثور عليها . وعسى أن تحفز هذه الكلمة بعض الباحثين من الفضلاء فيوفى هذه الترجمة ويحلل هـــذا المذهب إحياء لتراثنا العلمى الذى ذهبت به الأحداث والقرون

القدس — عبد القادر على الجاعونى
بكلوريوس فى العلوم

نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الأهمية على شيء مالم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة الى حرية الحياة التي لا تحد - من الانسان فى الله الى الله فى الانسان - والأدب مهما جمل لا معنى له إلا على قدر مايكشف معني الحياة الذى هو أثبت من الأرض وأبقى من السماء »

درس النعيمى جبران بهذا المقياس ، ويدرس الأدب كله فى جبران ، والأدب عنده هو مثل أعلى إذا ربط الانسان به حياته اللحمية والروحية ، وهذا مقياس جاد صارم ، لا يجعل من الأدب ملهاة ، وإنما ينزله منزلة الحياة . . . وأنت واقع فى الكتاب على فصول متنوعة ، هى بجملتها حياة جبران ، وهى بمجموعها تاريخ ذلك الصراع المادى لتُذعن له المادة ، وذلك الصراع الروحى المستمر لينقى روحه من أدرانها وشهواتها الأرضية . وفسادها أن صاحبها يحاول أن يفوز فيهما فى وقت واحد

فى الكتاب تاريخ جبران الأنسان ، وجبران الفنان ، وجبران الشاعر ؛ تاريخ هؤلاء الأشخاص المفترقين تحت لواء عقل واحد . يمشى كل منهم فى طريق ؛ ولا يدرى أين سلك رفيقه . وعقل جبران يظن أن نفسه هادئة مطمئنة — ونفسه منشقة على نفسها . جبران الأنسان لا يلتقى وجبران الشاعر الفنان إلا بالخيال ؛ والخيال وحده لا يكفى إذا لم يقو على الارادة ، ويجنحها بجناحيه ويطير بها الى حيث شاء

رسم النعيمى فى كتابه لجبران وجوهاً كثيرة : منها وجه جبران الفنان ، ووجه جبران الانسان ، ووجه جبران الطافح تمرداً ، ووجه جبران الهاذى الذى جعدته السنون وارتسمت فى غضونه الحكمة . أما جبران الفنان فأنت واجده فى كل أدوار حياته التى أثرت فيه وأثر فيها ، ومهما كان من تباين بين شعره وفنه فالرجل استطاع أن يكون . . . برغم المصاعب التى اعترضته وبفضل المصادفات التى خلقت ذلك وفرضت ذلك . جبران الشاعر كغيره من الناس تسكره الشهرة وتستهويه لمعاتها ، وهو بعد جهاد عنيف استطاع أن يبلغ بخياله تلك القمة التى دعاها الناقد قمة « المصطفى [1] » حيث أشرف جبران على الوجود ، ونظر اليه بخياله الخالص من تأثير « نيتشه » وغيره ، ووقف على معنى « الازدواج » فيه . ولكن جبران الانسان لم يكن برغم سمو خياله — عالياً سامياً كما تصوره لنا ريشته وبراعته ، فهو نسر نشيط كبلته قيود الأرض وشهوات المادة ولم يغنه الفن شيئاً ، بل زاد عذابه عذاباً ، لأنه كان يكشف لعينيه قباب ذلك الوجود الذهبى ويمنع قدميه الملوثتين من الدخول . . . جبران الانسان تغلى فى صدره شهوات ابن المادة ، وهو أنانى ونصير حب يود أن يكون فيه محبوبه عبداً ؛ وهو طالب شهرة لم يستطع فنه أن يحرره من شهرة الناس الذين يكرههم : لا يخرج من — صومعته [1] إلا جبران الفنان ، أما جبران الانسان فهو راسٍ على صدره لا يفر منه الا اليه . . .

هذا الاختلاف بين شخصين مندمجين فى شخص واحد هو موضوع الكتاب

يتساهل النعيمى مع جبران الفنان وحق له أن يتساهل أمام فنه المرن ونزعته الشخصية مهما مازج فنه من عوامل غريبة عن فنه ، أما جبران الانسان فلم يرحم ضعفه ولم يستره بستار الرحمة ، لأنه يرى أن رحمته تقوض معتقده الأدبى وتهدم نظرته الفلسفية ، وإنما يعتقد أن العبقرى الحقيقى لا يجعل من نفسه شخصين مختلفين ، ويرى أن الفن الصحيح هو مانقى النفس من أدرانها وأسوائها ، فهل نقى جبران الفنان جبران الانسان ؟

عمل جبران الفنان على تطهير جبران الانسان ، ورفعه من الهوة إلى القمة . ولكن قدمى جبران الانسان كانتا من قصب ، لا يكاد صاحبهما ينهض عليهما ويمشى قليلاً حتى تتحطما ويلبث مكانه . . . أليس فى فرار ميشلين [2] ابنة التراب ! من وجه جبران الفنان ابن السماء ! أكبر خزى لجبران ؟ أليس فى تألم الفتاة التى جاءت لتحيي « صاحب النبى » اعتقاداً منها أنه سيكون أسمى من النبى الذى خلقه أكبر هزيمة لجبران الفنان ؟ وهكذا ظل جبران فى نزاع مع نفسه حتى قضى ولم يقض لبانته

قد يكون فى هذا التصريح بعض ما يجرح ، ولكن الحقيقة . . . الحقيقة الانسانية لا تعرف المراءاة ، ولو كان جبران فناناً عادياً لما قاسه النعيمى بهذا المقياس الدقيق الذى لا يطبق

(١) كتاب وضعه جبران بالانجليزية

(١) إشارة إلى صومعة جبران

(٢) محبوبة الشاعر

إلا على العباقرة المختارين والنوابغ الموهوبين

ألم يكن « فيخت[١] » يغلب فيه الانسان الأخلاقي على الانسان الفيلسوف ؟ والانسان الاخلاقي يغلب عليه الانسان المجرد ؛ وهو كلما تجرد ونزع عنه هـذه الأقماط بدا أدنى إلى حقيقة السمو والكمال العاري كأنما كان يرتفع فنه معه متناسباً مع ارتفاع نفسه . وهذا هو المثل الأعلى الذي يطلب النعيمي إلى كل فنان أن يسمو إليه بعقله وجسده وفنه ؛ لا أن يقسم نفسه أقساماً ، يضع كل قسم منه حيث يريد

« ولا يكفي الانسان أن يبصر النور ليكون مستنيراً ، بل عليه أن يجعل ذلك النور هاديه الأوحد في حياته ، وإن في ذلك وحده سراً لانعتاق الأبدي من جحيم المتناقضات ، أما السبيل إلى ذلك ففي نبذ كل ما يحجب عنا النور من شهوات أرضية ، ونزعات زمنية وشعور بالفردية التي لا تأتلف وروح الكلية الشاملة[٢] » وطبقاً لهذا الاعتقاد يبين النعيمي جانباً من حياة جبران – لا كل جوانبه – التي حالت دونه ودون الانعتاق ، أو النكران المؤدي إلى الانعتاق

وهكذا تطلع في هذا القسم على حياة مستقلة بذاتها عن الانسانية ، ومتصلة بذاتها مع الانسانية ؛ عارية كاسية ، وإنما هي الحياة كلها بلحمها ودمها وروحها الذي لا يدرك

***

— ٢ —

جبران الثائر وجبران الهادئ

لا يقف الناقد على درسه على جبران الفنان وجبران الأنسان ، وإنما هو يعالج — من ناحية ثانيـة — المؤثرات التي أثرت في جبران ، والعوامل المقدّرة وغير المقـدرة ، والمتصلة — كما يقول الناقد — بمكوك الحائك الأكبر وغير المتصلة . فهو يولد مع جبران ويدرج معه من سياحة إلى سياحة ، ومن فشل إلى رجاء ومن رجاء إلى فشل . طوراً ينطق جبران بما نطق ، وتارة ينطق عن جبران بما لم ينطق . وفي هذه المنطقة يلتقي النعيمي الناقد بجبران الفنّان المجرد ، لا النعيمي الحامل المثل الأعلى لجبران الضائع وراء نوازعه الأرضية . ولا يمكننا أن نقف على قيمة جبران الأدبية إلا إذا تعمقنا في أحناء حياته . فجبران — في كتاباته — ذو وجوه متعددة ، منها وجه المحب المنهزم ، ووجه المتمرد الثائر ، ووجه الهادئ الساكن ، ووجه المتصوف السامي ، وصاحب هذه الوجوه رجل واحد هو جبران . والنعيمي يستعرض هذه الوجوه وجهاً وجها دارساً عواملها محللاً ألوانها

« يتبع » خليل هنداوي

(١) فيلسوف ألماني وردت ترجمته . (تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا)

(٢) من رسالة لنعيمة إلى الكاتب

